



محاوالت

سلامة موسى

محاولات

محاولات

تأليف
سلامة موسى



رقم إيداع ٢٠١٢/١٩٩٣٥

تدمك: ٧ ١٦٤ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتاح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ + ٢٠٢ فاكس: ٣٥٣٦٥٨٥٣ + ٢٠٢

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سيلفيا فوزي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2013 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧	المقدمة
٩	الوجدان ميزة الإنسان
١٣	الفراسة السيكولوجية
١٧	الأمراض النفسية ثلاثة أنواع
٢١	نعيش في عصر الأسبيرين
٢٥	الخوف يسيطر على حياتنا
٣١	كيف نعالج الخوف؟
٣٥	الهموم سموم!
٣٩	الطيبة طيبة
٤٣	مشكلات الشباب
٤٧	متاعب الشباب الجنسية
٥١	سن المراهقة
٥٧	ضرورة الاختلاط بين الجنسين
٦١	قيمة الامتناع الجنسي
٦٥	السلوك الجنسي والزواج
٦٩	كيف تختار الزوجة وتسوسها؟
٧٣	ليلة العرس
٧٧	الحب حنان والشهوة عدوان
٨١	لكل منا ماثله
٨٥	حين نحلم ونحن أيقاظ

- ٨٧ الغلو هو طابع الشخصية البارزة
٨٩ الأحلام والحرمان
٩٣ هل يمكن أن نزيد ذكاءنا؟
٩٧ امنعوا هذه الموسيقى
١٠١ إصلاح موسيقانا وأغانينا
١٠٥ كيف نجعل أطفالنا رجالاً؟
١٠٩ هل تورث العبقرية؟
١١٣ يجب أن نتكاسل!
١١٧ التفكير السليم
١١٩ أطفال في سن الخمسين
١٢٣ الأسباب السيكلوجية للجريمة
١٢٧ الشباب عقيدة
١٢٩ جريمة في الظلام
١٣٣ جنون الاقتناء
١٣٥ زي اللغة!
١٣٩ الأخ الأكبر لص العائلة!
١٤٣ مكر المغفلين
١٤٥ كيف نعالج المجرمين
١٤٩ كما نعمل نكون
١٥١ متى تصير المرأة إنساناً؟
١٥٥ كلاب بافلوف
١٥٩ مجتمعنا غير اجتماعي
١٦١ كلمات اللغة تعين الأخلاق
١٦٥ سيكلوجية الانضواء
١٦٩ من هو الرجل الناضج؟
١٧٥ سيكلوجية الرجل المثقف
١٨١ العنة الذهنية في كتابنا

المقدمة

هذه الفصول التالية هي «محاولات» لا أكثر ولا أقل، وكما هو الشأن في كل محاولة قد يكون النجاح أو الخيبة نصيبها، فقد تناولت موضوعات كثيرة كانت معالجتها المألوفة الماضية إما أدبية وإما وعظمية، فعالجتها من الناحية السيكولوجية. وتحدثت عن الموسيقى والأدب والعائلة والأجرام والمجتمع واللغة، وحاولت أن أتعلم الأصول التي تصوغ أو توجه أو تحرف هذه الأشياء وأمثالها، ونحن في مصر، بل في جميع الأقطار العربية، في مجتمع شاذ، وهو مثل الرجل الشاذ، يرتطم بعقبات قد اخترعها بخياله، فهو يخشى المستقبل ويتوهم الأخطار ويفر إلى الماضي، ويستند إلى ما يسميه تقاليد، ويخاف ويتردد، ثم هو في تركيبه شاذ؛ إذ هو يفصل بين الجنسين كأن الدنيا للرجال فقط وليست للنساء، وهذا الفصل وحده شذوذ خطير يحتاج إلى العلاج، وعندنا آلاف من الرجال والنساء، شباباً وكهولاً قد حطمهم هذا الانفصال وأزاع بصيرتهم في الدنيا، ففسدوا في سلوكهم، وارتدوا إلى مساوئ وانحرافات يتعرضون بها من هذا الانفصال على غير جدوى، بل أحياناً في ضرر أو خطر بالغ.

وهو — أي: المجتمع — إلى جنب الكظوم والانحرافات الجنسية التي أوجدها بالفصل بين الجنسين قد أحدث أيضاً كظوماً اقتصادية أخرى خطيرة، كثيراً ما تنتهي إلى حركات إجرامية تبدو في الظاهر كأنها دعوة إلى الانتهاض، ولكنها في الواقع انتهاض زائف أقرب الأشياء إلى النشاط الهستيري والحركة التشنجية.

وهذه الكظوم الجنسية والاقتصادية، قد أحالت جميع شبابنا — بل كذلك فتياتنا مع الأسف — إلى شاذين لا يعرفون الطريق السوي للعيش السوي.

وليس شيء في هذه الدنيا أدعى إلى التحسر والأسف من هذا البؤس السيكولوجي، الذي يحيا فيه شبابنا الذين حرموا شبابهم، قد حظرننا عليهم الاختلاط مع الجنس الآخر،

ومنعناهم من مراعاة الحب بمقاطعة الرقص، وجدنا الرفقة بين الشاب والفتاة وهي التي تضيء النفس وتحيي العقل وتهذب المجتمع وترقى بالحب إلى مستوى الصراحة والشرف والشهامة.

وأصبح الشاب بهذا الانفصال ينكفئ إلى غرفته كي يخلو إلى نفسه ويجتر الخيالات الزائفة، ثم يفسد نفسه وجسمه، وكأن حالته هذه الحالة المثلى التي يدعو إليها المحافظون على التقاليد الذين يكرهون الاختلاط بين الجنسين.

إن بؤرة انحطاطنا النفسي والاجتماعي والسياسي والثقافي هو هذا الانفصال بين الجنسين، هذا الانفصال الذي لا يفصل بيننا وبين الجنس الآخر فقط، بل بيننا وبين الإنسانية؛ إذ هو يعلمنا من التعاليم الشاذة عن ضعة المرأة وخسة الرجل ما لا يكاد يصدقه رجل متمدن، رجل إنسان! ومع أنني لا أتعامى عن عيوب المجتمع الأوربي فإني أجد هذه العيوب هي طفاوة على السطح بالمقارنة إلى العيوب العميقة في مجتمعنا، وهي عيوب قد أحدثت لنا مشكلات عديدة متنوعة؛ منها ما يهوي بنا إلى المارستان ونحن مجانين نصرخ من الدنيا ونفر منها كما لو كانت جهنم، ومنها ما نجد آثاره السيئة في الزي الذي نتخذه للملابسنا، أو بناء منازلنا، أو تعليم أبنائنا، أو أسلوب زواجنا وطلاقنا، أو تعيين أهدافنا في منهج الحياة كله.

وهذا الكتاب هو كما قلت، محاولة أكشف بها عن بعض الجروح السيكولوجية، أو أشير بها إلى علاج تجريبي، أو أوضح بها ما خفي من العلل التي أثمرها الظلم والظلام. وإنني أرجو القارئ أن يقرأه على أنه «محاولة» فقط، وأن يشاركني في التفكير في العلاج.

الوجدان ميزة الإنسان

أحب أن أزور حديقة الحيوان بالجيزة حيث أتأمل موكب التطور، ولكنني حين أقف أمام حيوان ما أجدني أتأمله، لا لأعرفه هو ولكن لأعرف الإنسان: لأعرف نفسي.

أنا في وجدان، أما هو ففي زهول، أنا واجد نفسي في هذا الكون، أما هو فذاهل كأنه في حلم، ووجداني هو شيء فوق العواطف؛ فإن الحيوان يغضب ويجوع ويشتهي ويخاف ويغامر، وجميع هذه العواطف أحسها أنا أيضاً في الظروف التي تتطلبها، ولكنني حين أحسها يزول عني وجداني بقدر إحساسي لها، فإذا كان إحساسي غامراً مطبقاً فليس هناك وجدان، وإذا كان صغيراً جزئياً فإني أجد نفسي.

أجدني إذا غضبت كثيراً هذيت بالشتائم وقد أرفس بقدمي بلا تعقل، بلا وجدان، كأني حيوان؛ لأن العاطفة تغمرني، فإذا هدأت؛ أي: إذا خفت العاطفة عاد إليّ وجداني، فأفكر وأتعقل.

ليس للحيوان إحساس تاريخي؛ لأنه يعيش بعواطفه، ولكنني أنا أعيش في التاريخ، لي أمس وغد، ولي أبعاد زمنية؛ أذكر الفراعنة والرومان والعرب قبل آلاف السنين، وأبعاد جغرافية أتنبه لها كل يوم حين أقرأ عن أخبار الحرب في كوريا، أو البترول في العراق، أو تأميم المناجم في إنجلترا.

ونحن البشر نتفاوت في درجة الوجدان، فالمتعلم أكثر وجداناً من الأمي؛ لأن الكلمات والعلوم زادت وجدانه، وأينشتين أكثر وجداناً منا؛ لأنه يتصور الكون بأفاته التي لا نصل إليها نحن، وقارئ الجريدة اليومية أكثر وجداناً من القارئ الذي يقرأ المجلة المصورة.

وقد قلت: إن الوجدان ميزة إنسانية، ولكي أرى بوادرها في الكلب وفي حيوانات أخرى، بوادر فقط، حين أتأمل الأسد في قفصه في حديقة الحيوان أعتقد أن وجدانه أو

بوادر وجدانه قد ألغيت بالقفص؛ لأنها حرمته من اختبارات الغابة، والصيد، والإصابة، والخطأ، والتجول، والإقدام، والهرب، وكل هذا جديرٌ بأن يكسبه شيئاً من الوجدان.

بل ماذا أقول! إنني أحياناً أتأمل بعض الناس فأجد أنهم ناهلون مثل هذا الأسد في قفصه، والقفص الذي يعيشون فيه هو هذا البيت وهذا المكتب وهذا الشارع بينهما، يقطعونه نهاباً وإياباً كل يوم، ولا يقرءون الجريدة، ولا يشتركون في نشاط علمي أو أدبي أو اجتماعي، ولا يخرجون إلى الريف، ولا يسهرون ليلة كاملة في الخلاء.

ولو كنا على وجدان تام لكنا على سعادة تامة؛ لأننا — عندئذ — نتخلص من تراث العواطف الحيوانية، وأيضاً نعرف جميع الأسباب ونقدر جميع النتائج، وهذا بالطبع محال، ولكن على قدر وجداننا يكون المقدار الذي نناله من السعادة؛ لأننا نتعقل — عندئذ — جميع الأشياء، ومتى تعقلناها تماماً لا يكون للعاطفة مكان.

والجنون هو فقداننا للوجدان، وهو يبدأ «نيوروزاً»؛ أي: احتداد عاطفة معينة؛ كالخوف، أو الغضب، أو الكراهية، أو الحب، ثم ينتهي «بسيكوز»؛ أي: اختلاط العقل وزوال الوجدان، بل إن الوجدان قد زال قبل ذلك باحتداد العاطفة؛ أي: «بالنيوروز».

ومهمة التربية هي تغليب الوجدان على العاطفة؛ لأن معظم أخطائنا وكوارثنا ينشأ من السلوك الذي ينبني على انفعالنا العاطفي بدلاً من تفكيرنا الوجداني.

وأعظم ما يزيد وجداني هو اللغة التي أكسبته معاني مختلفة من كلمات مختلفة، فإن كلمة «المروءة» — مثلاً — تنقلني من حدودي الفردية الذاتية إلى آفاق اجتماعية وبشرية ودينية، وعندما أشيخ وبيدأ خرف الشيخوخة في التسلط على عقلي فإن ذلك لن يكون إلا عن سبيل النسيان للكلمات التي تعين لي المعاني وتزيد وجداني، أما إذا بقيت هذه الكلمات في ذاكرتي فإن هذا الخرف لن يجد سبيلاً إليّ؛ ولذلك يجب أن نذكر أن للغة قيمة كبرى في صحة النفس؛ سواء من ناحيتي الكم أو الكيف.

إنني أقارن بيني وبين الحيوان وقت الظلام في الخلاء؛ أنا أحس، بل «أجد» أن دائرة نظري قد ضاقت على الأرض بسبب الظلام، ولكن وجداني بهذا الكون قد زاد أيضاً؛ لأنني أرى نجومًا تبعد عني ملايين السنين الضوئية في فضاء لا ينتهي، هذا هو وجداني، أقصى الوجدان، ولكن الحيوان يحس أن الظلام يحوطه فقط، وهو لذلك يخاف ولا يتعقل، وليس عنده غير عاطفة الخوف.

وكما أن اللغة قد زادت وجداننا، وهي علة وجداننا، فإن دراستنا للعلوم قد زادت أيضاً، فنحن نقرأ الجريدة اليومية بإحساس تاريخي، فنأمل الحوادث ونقارن بين الأمس واليوم وبين اليوم والغد، وحين ندرس الطبيعيات — مثلاً — نكسب وجداننا النظرة التلسكوبية الفلكية أو النظرة الميكروسكوبية الذرية.

والفرنسيون يطلقون كلمة واحدة على الوجدان والضمير: «لاكونسيانس»؛ لأن الوجدان يؤدي إلى الضمير كما يؤدي إلى التعقل، وذلك لأننا ما دمنا منساقين بالعاطفة: حب وغضب، وكراهة وإقبال، ولذة وغيره، وخوف، فإننا لن نجد أنفسنا؛ أي لن نقف كي نتأمل ونقارن ونستنتج ونحس الخطأ والصواب، نحس الضمير.

أعتبر الدقائق التي نقضيها في الاتصال الجنسي أنها دقائق العاطفة المتأججة حين نكون في جنون وقتي ليس فيه أي تعقل، وسائر عواطفنا تجري على هذا المعنى، وإن كانت أخف حدة وأقل جنوناً؛ فنحن وقت الغضب والحزن والخوف والشك مجانيين أو كالمجانين، نسلك سلوك الحيوان ولا نرتفع إلى المستوى البشري إلا بمقدار ما ندخر من وجدان؛ أي: تعقل.

قلت: إننا نسعد بمقدار ما عندنا من وجدان؛ لأننا — عندئذ — نستطيع أن نتعقل أية نكبة تقع بنا دون أن تسلط علينا عاطفة، فلا نغتاظ ولا نبتئس ولا نخاف ولا نتشك.

السعادة هي الوجدان، بل كذلك العظمة.

فأعظم الناس هم أكثرهم وجداناً، مثال ذلك غاندي؛ فإننا نعهده عظيمًا لأن وجدانه هو الوجدان البشري كله، وطنه هو العالم، وهمومه هي هموم أربع مئة وخمسين مليون هندي يحاول تغيير نفوسهم، وإحساسه التاريخي نحو المستقبل يمتد إلى آلاف السنين القادمة، ولذلك ماتت فيه العواطف المألوفة عندنا نحن الصغار، فلم يبال أن يقتني ثروة، بل حتى العاطفة الجنسية كفَّ عنها قبل أن يموت بنحو أربعين سنة، ولم يكن يغضب أو يحزن أو يخاف.

وهذا هو الشأن في الأديب العظيم؛ مثل تولستوي أو جوركي أو برناردشو، فإن عظمتهم تعود إلى أنهم قد زادوا وجدانهم وخرجوا من أسر عواطفهم، ولذلك ليست همومهم التي تؤلمهم شخصية صغيرة وإنما هي عامة كبيرة؛ فقد احتوى كل منهم هموم البشر جميعهم.

ومستقبل الرقي البشري، في ضوء التاريخ الماضي، سوف يبني على زيادة الوجدان والحد من سلطان العواطف.

الفراسة السيكلوجية

الوجه هو بطاقة النفس التي نتعرف بها إلى صاحبها؛ أي شخص هو؟
أهو انبساطي متفتح مستبشر ضاحك أم انطوائي مفكر محتجز؟ أهو خائف أم
مجتري؟ ومترن أم مززع؟

ثم كيف نقعد وكيف نمشي؟ بل كيف ننام، وكيف نتحدث؟ إن التفاتة العين وحركة
القدم وإيماءة اليد كلها تدل على الحالة النفسية التي نستمتع أو نبتئس بها.
اعتبر رجلاً قاعداً وقد شرد ذهنه، أو قد وضع يده تحت خده، أو هو يهز قدمه،
أليس في كل هذا علامة معينة عن حالات نفسية يسهل علينا تفسيرها؟
عندما نقصد إلى الفراش للنوم تمر بأذهاننا خواطر بشأن الحوادث أو المشكلات
التي مرت بنا أو سوف ننتظرها.

وهي تعين لنا أحلامنا بعد ذلك، كما تعين لنا الوضع الذي نتخذه في النوم.
فإذا رأيت رجلاً ينام ووجهه مكشوف سافر للعالم فاعلم أنه نام مغتبطاً، بخلاف
ذلك الآخر الذي يخبئ وجهه وهو نائم كأنه يخشى شيئاً.

فإن هذا قد نام وهو يفكر؛ لأننا في النعاس نكون على حالات مختلفة من الفرح أو
الحزن أو اللذة أو الألم، وهذه الإحساسات تتجسم في هيئة النوم.
وقد أجد أحد الناس قاعداً ينتظر آخر، أو هو قد شرع يفكر في موضوع ملح، فهو
يهز قدمه فأعرف أنه في قلق.

وأحياناً أجد آخر لا يكاد ينتهي من سيجارة حتى يشعل أخرى.
وهذا أيضاً في قلق، بل إن أكل اللب قلق؛ وذلك لأن الرجل المهموم يحتاج إلى ما يرفه
عنه بالسيجارة أو اللب أو القهوة أو حتى باستهلاك الطعام الذي لا يحتاج إليه؛ لأن
المضغ يرفه عنه.

ومن هنا نعرف أن الرجل السمين إنما تراكم عليه الشحم لأنه كان مهمومًا قلقًا، يأكل كثيرًا كي يرفه عن نفسه ويسري عنه همومه.

والمرأة حين ترى نفسها وحيدة في البيت ليس فيه ما يسليها من زوج أو أولاد تأكل كثيرًا؛ لأن الأكل هنا تسلية وترفيه وإبعاد للسأم، ولذلك تسمن.

والرجل الخائف المزعزع يحب ألعاب الحظ؛ مثل الطاولة أو الكوتشينة، أو هو يقصد إلى ميادين السباق للقمار؛ لأنه في زعزحته وبعده على الطمأنينة يحتاج إلى مثل هذه المقامرات الصغيرة كأنه يقول: لعلني أنا مخطئ في شكوكي وأوهامي، لعلني أجد الحظ الحسن.

بل هو حين يسير في الشارع يعد أعمدة المصابيح، هل هي زوج أم فرد.
وكلنا نعرف أن لون الملابس يدل على حال نفسية في لبسها، بل كذلك وضع الطربوش.

ونستطيع أن نستعمل الفراسة السيكولوجية في تعيين الصفات النفسية عندما نتأمل لغة المتكلم، فإن الموضوع الذي يختاره ويلتفت إليه يدل على اهتمامه الأول، ثم صوته العالي أو صوته المنخفض يدل كل منهما على حال معينة؛ فعلو الصوت برهان على نقص مستكن في النفس، كأن الناقص يحتج برفع صوته، أو كأنه يحس أن من أمامه ينكر عليه أقواله فهو يؤكد ويرفع النبرات.

ثم يجب ألا ننسى ذلك المتلثم المتردد المتلجلج، فإن هذا المسكين يعجب؛ لأنه حين يدخل غرفته ويقعد وحده لا يتلثم أبدًا، وإذن ليس هذا العيب في حنجرته وإنما هو في نفسه، هو خوف مستقر أو شك ملازم؛ لأن اللسان المتردد يدل على نفس مترددة، وهذا التردد يبدو في المجتمع ويزول في العزلة، ونحن نمثل أمام هذا المتردد المتلجلج هذا المجتمع الذي يخافه، فهو يتلجلج أمامنا.

وربما تضطرب يده كما يضطرب لسانه، وربما أيضًا يعود إلى درجه أو خزائنه بعد أن يقفلهما كي يثق أنه أقفلهما.

ثم اعتبر المجرم الذي أخفى جثة فريسته في ساقية كيف يشيح بوجهه عنها وقت التحقيق، ويؤكد هذه الإشاحة حتى تعود دليلاً عليه يهدي المحقق؛ ذلك لأنه مشغول بالجريمة يحاول إبعادها بذهنه، فيبعد عنها وجهه.

أو اعتبر ذلك القاضي الشاذ كيف يعاقب الشاذين أقصى العقوبة؛ لأنه إنما يعاقب نفسه في شخص المتهم، وكأنه يحذر نفسه من الوقوع في مثل هذه التهمة؛ لأنه يعرف هذا الشذوذ في نفسه، والإسراف والعربدة يدلان على قلق أو تززع.

اعتبر المُحدِّث الذي جمع مالاً مفاجئاً من حرب أو نحو ذلك، فإنه يقيم الحفلات المسرفة، ويقتني الأثاث الفاخر أو الزاعق، وينادي الخدم، ويضحك ويمزح كثيراً، وسهراته تطول وتتعدد؛ ذلك لأن إحساسه المتعمق بالفقره وهوانه السابقين يحته على الظهور بالثراء واعتياد الثراء، هو إحساس بالفقر السابق يؤدي إلى إسراف في الظهور.

وكذلك الرجل الذي يحس نقصاً جنسياً أو يتوهم ذلك، يدأب في التنقل من امرأة إلى أخرى في إسراف جنسي كأنه يريد أن يثبت لنفسه أنه فحل بين الرجال، وحديثه لا يكاد يخرج عن اقتحاماته النسوية الكاذبة أو الصادقة.

اعتبر الأخ الأصغر في العائلة يثور وهو طفل على استبداد أخيه الأكبر، فثورته على أخيه في الطفولة تستحيل عندما يبلغ الكهولة إلى ثورة على المجتمع.

وكذلك اعتبر إيماءة اليد عند المصافحة، فهناك اليد التي تصافحها فتحس كأن صاحبها يقول: أنا خائف، فإنها مترهلة ممتة منسحبة، وهناك اليد التي يجذبها صاحبها منك كأنه يقول: أنا أكرهك، وهناك اليد التي تقبض عليك كأن صاحبها يقول: لا تظن أنني ضعيف، أنا قوي، وهو إنما يعبر عن نقص خفي في نفسه، وهناك اليد الغروية التي تلتصق ولا تريد أن تترك يدك؛ لأن صاحبها أناني اقتنائي لا يريد أن يترك ما كسب، بل يريد أن يستحوذ، أو اعتبر ذلك الذي يحس أنه يكاد ينزلق عندما يفكر في المرأة، فهو لذلك لا يتعب ولا يسأم من الكلام ضد المستحمين على الشواطئ.

ثم هناك فراسة أخرى في النقد الأدبي؛ فإن الكاتب الرجعي الذي يشيد بالتاريخ الماضي ويكتب على الأسلاف إنما يفعل ذلك هروباً من مشكلات العصر الحاضر. وهو لا يختلف في ذلك عن المراهق الذي يلجأ إلى الخمر.

وذلك الكاتب المتعصب الذي يكره من يختلفون عنه في الدين، قد يكنُّ حزازة شخصية ضد أحد المتدينين بهذا الدين الذي يكره.

ولعلك لا تنسى أن اختباراتنا الشخصية الصغيرة، وربما الدنيئة، قد تحدث لنا مركبات أدبية عظيمة.

ثم اذكر الكاتب السباب الذي يكنُّ نقصاً كأنه شوكة في نفسه، فهو لا ينقطع عن الإيذاء وتحري العيوب، كأنه من حيث لا يدري يريد أن يقول إنه هو على الرغم من عيبه أعلى من غيره.

ومهمة السيكولوجية أن تترك المظهر وتغوص إلى الجوهر. ولكن يجب على القارئ لأحد المؤلفين ألا يستهين بفلسفته أو أدبه أو اتجاهاته؛ لأنه قد اهتدى إلى البؤرة القذرة التي صدر عنها، إذ هي قد تكون بمثابة التربة التي نشمئز

من سمادها العفن، ولكننا نعجب بروعة الشجرة التي نبتت منها، ونحن لا نستطيع أن نفكر إذا كان كياننا راسخاً مطمئناً؛ أي يجب أن نتقلقل بعض الشيء حتى نفكر ونتنبه. والتغير السيكولوجي يؤدي إلى تغير عام في الشخصية؛ فالرجل الفقير الخائف المتشائم يتغير عقب نجاحه المالي، فعينان تبرقان وشفتان تبتسمان، وهو يقعد منتصباً، كما يرفع رأسه عندما يمشي، بل هو حتى عندما ينام يبدو وجهه متهللاً، بل إن خطه يتغير ويتخذ وضعاً عمودياً جريئاً بدلاً من الوضع المنحني المنزلق السابق.

الأمراض النفسية ثلاثة أنواع

المفروض عند من يقرءون الكتب السلوكية أن الأمراض النفسية نوعان؛ هما النيوروز؛ أي: الكرب العاطفي، والسيكوز؛ أي: الجنون المطلق.

ولكن هناك نوعاً آخر هو السيكوباتية، وهو يكاد يستقل بأعراضه عن النوعين السابقين، وإن كان هناك اتصال من حيث التزعزع النفسي.

ولا نستطيع أن نترجم هذه الكلمات الثلاث، وليس من مصلحة الدارسين للسلوكية أن يترجموها؛ لأن الترجمة هنا تقطع بين الطالب المصري أو العربي وبين كلمات هذا العلم، وهي — أي: هذه الكلمات — ليست إنجليزية أو فرنسية أو ألمانية، وإنما هي كلمات سيكولوجية يشترك فيها جميع الطلبة والباحثين مهما اختلف لغاتهم. وإليك التفسير:

فالنيوروز هو مرض نفسي يكاد يصيبنا جميعاً في وقت ما من حياتنا، وهو جنون العاطفة حين نحس غضباً لا يطلق، أو حزناً لا نتحملة، أو خوفاً لا نتمالك أنفسنا منه، أو كرباً كأنه جبل على رؤوسنا، أو همماً لا يتركنا، ونحن جميعنا — بالطبع — نخاف ونضيق ببعض الظروف، ونغضب ونحمل همماً أو همين في بعض الفترات من حياتنا، بل ربما من يومنا. وليس في هذا شيء، ولكن إذا تملكنا الخوف أو الكرب أو الهم وأصبحنا نجتز العاطفة اجتراراً ولا نعرف كيف نتخلص منها، بل لا نعرف لماذا نحن نخاف أو نغضب أو نتشكك أو نحقد أو نغار أو نحسد، وأن هذه العواطف تمنعنا من العمل وتأدية أعمالنا على الوجه النافع لنا، فإننا في هذه الأحوال جميعها نعد مرضى.

فالشخص النيوروزي هو شخص عادي لا يختلف عنا نحن العاديين السويين إلا من حيث أن عاطفته قوية جداً، بل جامحة، وأنها هي التي تملكه بدلاً من أن يملكها هو، وهو بذلك في ضيق وكرب، وهو نفسه يعرف أنه مريض أو متعب نفسياً؛ أي إنه على

وجدان (دراية) بنفسه وبالمجتمع الذي يعيش فيه، ولكنه يعجز عن التخلص من هذه العواطف.

والمرض الثاني هو السيكوز، وهذا ما نسميه باللغة العامية جنوناً؛ فإن السيكوزي كان قبل أن ينتهي إلى حال الجنون هذه في نيوروز؛ أي: تسلط العاطفة الذي لا يطاق؛ كان يخاف كثيراً، أو يتشكك كثيراً، أو يغار أو يحقد أو يحسد، فلما اشتد به الكرب، وكادت تخنقه العاطفة، وهو لا يجد لها علاجاً بل لا يفهم لها أصلاً، عمد إلى خياله فاخترع الخبز الذي يحلم به النائم، وبذلك حل مشكلته بنفسه، ولكن الحل جنوني.

ونحن وقت النوم حين نحلم نكون في جنون؛ أي: سيكوز، ولكن سرعان ما نفيق منه عند اليقظة، فقد نظير فوق القاهرة، أو ندخل الجنة، أو نعود إلى الطفولة مع أمنا التي مضى على وفاتها عشر سنوات، أو نقتني مليون جنيه، كل هذا نراه في الأحلام ونرتاح إلى الإحساس اللذيذ الذي تحدثه هذه الخيالات الجميلة، وهي — أي: هذه الخيالات — تفريج وقتي يفكك العقد والمركبات، ويحلل العواطف السيئة التي تنتابنا وقت اليقظة والعمل والكسب في النهار. والأحلام هنا مفيدة، ولكن السيكوزي يحيا حياته كلها نهاراً وليلاً في الأحلام، وينشئ لنفسه عالماً آخر يرتاح إليه ويفكك به عواطفه الطاغية التي كانت تجعله نيوروزياً، وهو بهذا السيكوز ينفصل عن المجتمع.

النيوروزي قد جنت عاطفته وطغت عليه، ولكنه لا يزال يحتفظ بوجدانه؛ أي: تعقله، وهو ضائق مكروب لا يطيق ما هو فيه.

ولكن السيكوزي قد جن عقله، امتلأ بالخيالات والأحلام التي فصلت بينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه، وقد زال عنه الوجدان؛ أي: لا يدري بنفسه.

ومن السهل أن نحلل النيوروزي ونفكك العاطفة الطاغية، ولكن من الشاق أن نحلل السيكوزي؛ لأن الأول على وجدان بما يفعل معه، وهو يساعدنا، أما الثاني فقد هجر الواقع إلى الخيال واستقر عليه؛ إذ لم يكن يطيق هذا الواقع الذي كان يطبق عليه ويجعل عاطفته تطغى.

ونحن حين نرى النيوروزي والسيكوزي نشفق عليهما كثيراً، ونحس أنهما لا يستحقان كل هذا البلاء، ولكن هناك نوعاً ثالثاً من الأمراض النفسية قد يكون خفيفاً جداً حتى لا نلاحظه، وقد يتفاقم حتى يؤدي إلى الاغتيال أو الفسق أو الغدر أو السرقة، وهو السيكوباثية.

والسيكوباثي هو المجرم على وجه عام، وهو يختلف عن النيوروزي من حيث إن هذا الثاني مسكين قد تغلبت عليه عاطفة ملحة مثل الغضب، فهو لا يتمالك من أن يضرب

خصمه أو يقتله في نزوة الغضب، ولكنه يعود فيهدأ ويندم ويبيكي على ما اقترف، ويطلب الصفح ويحاول التوبة، ولكن السيكوباتي يقتل وهو بارد في غير هياج، وهو لا يندم. وإذا ضبط فإنه لا يفكر في التوبة، وإنما يفكر في احتمالات جديدة لكي لا يضبط مرة أخرى.

والسيكوباتي نهَاب خطّاف، يزور ويختلس ويزيّف النقد أو يفسق بالصبيان أو بالفتيات إذا آتته الفرصة، وهو على وجدان بما يفعل، يدبر في تعقل ويتخلص في تعقل، وقد يكون متعلماً فيستغل ما تعلمه في تحقيق أهدافه الإجرامية، وجنونه هو جنون الأنانية المسرفة، فإنه يلومك ويكرهك لأنك لم تترك له فرصة كي يسرقك، أو هو يحقد عليك لأنك ضبطته.

وفي الأغلب يكون هذا السيكوباتي «المجرم» قد قضى طفولته وهو مدلل، قد تعود في السنين الأولى من عمره أن تلبى جميع طلباته، فإذا وجد رفضاً رفس بقدميه وصرخ حتى ينال طلبته، ويرسخ فيه هذا الأسلوب إلى سن الثلاثين بل السبعين، أو هو يكون قد اضطهد أيام طفولته فنشأ على عادات أخرى من المكر والغدر والاحتيال كي ينال طلبته. وكلاهما — المدلل والمضطهد — سيئ، ولكنني أعتقد أن الطفل المدلل أسوأ من الطفل المضطهد، وأنه حري بأن يكون في المستقبل مجرماً أكثر من الطفل المضطهد.

وليس من الضروري أن يصل السيكوباتي إلى السجن بجرائمه؛ لأنه في أغلب الأحيان يكون نكياً يعرف كيف يتقي المسؤوليات، وأحياناً يجد من ثرائه الموروث — مهما يكن قليلاً — ما يتيح له العطل الدائم الذي يستغله في الأذى، وهو لذلك يكره الخدمة والإنتاج، كما يكره المجتمع، بل يكره النظام والإنصاف.

هو طاغية على أهله وعلى مجتمعه، وهو ظالم لهما، ولكنه مظلوم؛ لأنه لم يحصل على تربية سديدة من أبويه اللذين دللاه أو اضطهداه.

نعيش في عصر الأسبيرين

عندما يحين ميعاد الامتحانات نسمع عن حوادث مؤلمة تدل على توترات نفسية أدت إلى مخاطر إجرامية، وقد كتب بعض الأطباء يحذر من استعمال العقاقير المنبهة التي تساعد الطالب على السهر واليقظة للمذاكرة، ثم ما يعقب هذه اليقظة المفتعلة أو المغصوبة من الجسم من انهيار أو رجح مخيف، كذلك الطالب الذي انغمس في هذه المنبهات حتى إذا كان يوم الامتحان ملأ صفحات ورقته باسمه وعنوانه، يكرهما سطرًا بعد سطر، وهو في هول عما يفعل، كأن هذا الذهول كان الرجح؛ أي: رد الفعل لذلك التنبه السابق الذي اغتصب من الجسم اغتصابًا.

والواقع أن كثيرًا من الطلبة يقاسون أزمات نفسية وتوترات عصبية لا يطيقونها، وبعضهم ينحدر إلى العادة السرية على سبيل التفريغ بالاسترخاء وليس للدراسة الجنسية المكثومة، وهذه العادة تزيد الاضطراب النفسي لما تحدث من أسف وخوف، ولكن بعضهم أيضًا ينهار انهيًا يكاد يكون تامًا فيقاسي لونا من النيوروز؛ أي: تسلط العاطفة، بحيث يخاف أو يشكو أو يقلق كثيرًا لغير سبب واضح، وقد يرتقي هذا النيوروز إلى سيكوز، وهنا الطامة التي لا يكاد يكون لها علاج.

والأصل في كل ذلك أن برامج التعليم شاقة، أو هي تبدو كذلك لبعض الطلبة، إما لأنهم دون مستواها في الذكاء والكفاءة، وإما لأن المعلم ليس ماهرًا في الشرح. وتزيد صعوبة الامتحانات عندما يتخلل السنة المدرسية مظاهرات أو عطلات كثيرة كما حدث هذا العام.

وليس الطلبة وحدهم هم الذين يعانون هذه التوترات، وصحيح أن الامتحان مباراة صريحة معينة بالساعات والأيام، وهي لذلك تعين عند الطلبة أوقات التوتر، ولكن مجتمعنا كله يعيش في مباراة صريحة أو مضمرة، ومن هنا هذا الأسبيرين الذي فشا في السنوات

العشر أو العشرين الماضية، فنحن أو أكثرنا يعاني صداعًا لا يعرف سببه، أو هو يعلله تعليقات زائفة بالرشح أو السهر أو الصفرء أو نحو ذلك، مع أن السبب الواضح هو الهم والقلق اللذان تفسيا هذه السنوات الأخيرة؛ لأننا خرجنا من مجتمعنا الزراعي التواكلي الذي كان أبائنا يعيشون فيه، إلى مجتمع جديد صناعي تجاري قد اشتدت فيه المباراة، وقد ذهب عنه التواكل والتكاسل السابقان.

ونحن ندعو إلى هذا المجتمع الجديد؛ إذ لا خلاص لمصر ما دامت تعيش وتقتصر على الزراعة، وندعو للعقلية الجديدة عقلية النشاط والتدبير والطموح التي يدعونا إليها مجتمعنا الاقتصادي الجديد القائم على التجارة والصناعة، ولكننا، ونحن في سياق هذا الانقلاب، كثيرًا ما نندفع في جنون المبادرة إلى ما يؤذينا ويحطم أعصابنا، بل عقولنا.

هذا الأسبيرين الذي يباع في كل مكان كما تباع الباستيليا جديد، وهو يعالج صداعًا جديدًا قد نشأ من الانغماس في المباراة حين نتعب ونلهث وننصب لأنفسنا أهدافًا بعيدة لا نستطيع تحقيقها، وحال أولئك المصدعين الذين يشترون الأسبيرين لا يختلف كثيرًا من حال أولئك الطلبة الذين يشترون المنبهات للسهر واليقظة والدرس.

وهذه حال سيكولوجية جديدة قد تفتشت لسيادة حال اجتماعية جديدة، ولذلك يجب أن نقف من وقت لآخر عن هذه الهرولة، وأن نرتاح وأن نعود إلى أخلاقنا الزراعية التواكلية على سبيل العلاج.

إن الفلاحين لا يشترون الأسبيرين، ولا يحسون الصداع، وكذلك لا يخطر ببال أحدهم أن يشتري المنبهات الجديدة كي يسهر إلى الساعة الثانية من الصباح، وهو قانع في مباراته، محدود، لا يرتفع إلى النجوم، وهو متواكل هادئ الأعصاب متزن العقل.

ولكننا — كما قلنا — لا نستطيع أن نقنع بالزراعة والتواكل في عالم تعمه الصناعة والمباراة والتدبير، فيجب أن نأخذ بنظام مجتمعنا الجديد، المجتمع الصناعي التجاري، ولكن في تعقل بلا هرولة.

وبلا حاجة لأن نشترى الأسبيرين.

قرص الأسبيرين هو رمز مشئوم لحياتنا المرهقة المتوترة في المدن، فإننا نؤدي في المدينة بأعصابنا ما كان يؤديه أبائنا في الريف بعضلاتهم، ومن هنا الصداع والسأم، وأحيانًا الانهيار، ومن هنا رواج الأسبيرين.

ونحن حين نلجأ إلى رأس البر أو بور سعيد أو الإسكندرية للاصطياف إنما نحاول أن نسترد شيئًا من أسلوب العيش الذي كان يعيش به أبائنا، ولذلك ننخلع من كثير من هذه

التكاليف التي ترهقنا بالمدينة، فترانا وقد خلعنا الملابس الأوربية وارتضينا الجلباب، أو استلقينا على الرمل في أقل ما نستطيع من ملابس، تسطح علينا الشمس، ونعيبث بالرمل، ويسامر بعضنا بعضاً.

ونجد في كل ذلك راحة نفسية هي خير ما يعوضنا من التوتر أو الإرهاق العصبي سائر السنة في المدينة.

ولكن تغيير الجو يجب ألا يقتصر على الجو المادي، إذ يجب أن يشمل الجو النفسي. فقد أتيج لي أن أستمع إلى حديث اثنين من المصطافين، وكان الجو المادي، بحرًا وهواء ورملاً، يهيبئ الراحة، ولكنهما كانا يتحدثان عن الدعوى والإنذار والمحامي والاستئناف، واعتقادي أنهما وهما على هذه الحال لم ينتفعا بتغيير الجو المادي؛ لأنهما قد نقلنا الجو النفسي بكل ما يحمل من هموم معهما إلى مصطافهما.

نحن في المصيف نستشفى من أمراض المدينة، وهذا الاستشفاء يقتضي الاسترخاء العضلي والاسترخاء العصبي، فيجب ألا نحمل همومنا معنا، وقد يكون هذا شاقًا، ولكن المسافة التي تفصل بيننا وبين المدينة تساعد على النسيان، فيجب أن ننسى وأن نسترخي. يجب أن تتوافر وسائل النسيان والاسترخاء في المصايف، وذلك بإيجاد المباحج العامة، وكف الناقدين عن هذا النقد الذي يتكرر كل عام بشأن الاختلاط واختصار الملابس، فإنه ليس من الحق أن نزع أن الناس حين يخلعون ملابسهم يخلعون أيضًا أخلاقهم.

وعشرة شهور من التوترات النفسية في المدينة مع تناول الأسبرين تحوجنا إلى شهر أو شهرين من خلع الملابس المحبوكة المربوطة، وإلى الاستلقاء على الرمل عابثين ضاحكين.

الخوف يسيطر على حياتنا

الخوف هو العاطفة العامة التي تسيطر على حياتنا، وهذه السيطرة تزيد أحياناً حتى تبلغ حد الطغيان، وعندئذ تفسد النفس فنسلك في غير تعقل، وقد يعود هذا على أشخاصنا أو على غيرنا بالأذى والخسار.

ونحن نولد ونحن خائفين، فإن الطمأنينة والدفء والارتياح الذي كنا نجده ونحن أجنة في الرحم يعود قلقاً عقب الولادة، وأعظم ما نخشاه هو السقوط، ولذلك نجد أحلاماً وراثية في الأطفال هي السقوط، وقلّ أن يخلو طفل من هذا الحلم.

وليس هذا غريباً إذا عرفنا أن أعظم ما كنا نخاف، ونحن بعد على غصون الشجر لم ننزل إلى الأرض الثابتة، هو السقوط؛ لأن حلم السقوط هو حلم الخطر القديم الذي كان يهددنا قبل ملايين السنين، ولذلك أيضاً يولد الطفل وبه غريزة لا شك فيها، هي أنه يقبض بأصابعه على كل ما يلقي؛ وخاصة شعر أمه التي تجد المشاق في تخليص أصابعه الدقيقة منه.

ثم ينشأ الطفل بعد ذلك في مخاوف عديدة: الظلام والقفار، ثم إذا بلغ الصبا وأدخل في المدرسة عرف عذاب الدروس والعقوبات والتوبيخات من معلمه أو من أبويه، ونحن نغرس فيه منذ هذه السن روح الغيرة والمباراة، وكلتاها تعمل أيضاً لتخويفه؛ لأنه يخشى أن يتخلف ويفشل.

ثم بعد المدرسة تزيد المخاوف؛ فهو يخاف العجز عن كسب العيش، أو هو يخاف التأخر في مباراة الحياة، وحياتنا عامة تحفل بالمخاوف وخاصة في المدن؛ فالأم كثيراً ما تحلم بأن ابنها قد سقط تحت الترام. وقد عرفت شباناً في الجامعة يطمون بالسقوط من سطح المنازل، وذلك مدة الامتحان، وليس الكابوس إلا رمزاً للخوف يتخذ صورة بدائية

وحشية، وجميع هذه الأحلام برهان على أن الخوف مستقر في نفوسنا أطفالاً وصبياناً وشباناً وآباءً.

ومجتمعنا القائم على المباراة يزيد الخوف؛ لأن للحظ أثرًا كبيرًا في النجاح أو الخيبة، وكذلك المستقبل غيب لا يعرف، ونحن نتوقع فيه جميع الاحتمالات، نتوقع المرض أو الموت، والكسب أو الخسارة، وقد عرفت موظفين في الحكومة وقعوا في نيوروز؛ أي: العواطف القهرية المحددة؛ لأن معاكسة الرئيس قد دست في قلوبهم الخوف من ضياع الوظيفة. نستطيع أن نجد الأثر الواضح للخوف العام بين عدد كبير من السكان في الإقبال على ألعاب الحظ مثل السباق أو غيره، وكذلك الرغبة العامة بين الشبان في لعب الطاولة أو الورق.

والعلاقة هنا تحتاج إلى شرح موجز، فإن أهدنا عندما يخرج خائفًا في الصباح من بيته تراه يستطلع الجو، ويتشأم أو يتيمين بكلمة يسمعها من أحد العابرين في الشارع أو القاعدين في الترام، فالكلمات البسيطة مثل: الحمد لله، خراب في خراب، بكرة تعمر، كله خير ... إلخ، هذه الكلمات يعود لها معنى خاص له هو نفسه، كأنه يقول إذا سمعت كلمة طيبة فأنا ناجح، وإذا سمعت كلمة سيئة فأنا خائب.

فهو هنا يقامر بالكلمات التي يسمعها من الأفراد العابرين. أو هو يأخذ المسبحة ويعد حبوبها.

أو هو يضرب بكفه أعمدة المصابيح كي يعرف هل ما في الشارع منها زوج أو فرد، وقديمًا كان التطير، وهو التشاؤم بالطير إذا طار عن اليسار، وهو التيمن إذا طار عن اليمين.

ولعب الورق والطاولة ينهض أيضًا على هذا الأساس، وهو أن اللاعب يحس خوفًا مستقرًا؛ فهو يلعب حتى إذا انتصر غمرت نفسه سعادة وقتية بأن كل شيء سيسير على ما يحب، فللكلمات العابرة ولأعمدة المصابيح ولألعاب الحظ قيمة أو دلالة رمزية يحتاج إليها الخائف حتى يطمئن.

وقد يزيد الخوف فيؤدي إلى شرب الخمر هربًا من الألم أو القلق الذي يحدثه؛ لأن شارب الخمر يحس انتصارًا وقتيًا وسيادة وشجاعة لا يحسهما الصاحي، وأعظم ما يحتاج إليه من يحكم عليه بالإعدام هو السجائر.

ومن هنا نعرف أن إدمان التدخين إنما هو خوف مستقر؛ ولذلك يزيد الإدمان وقت القلق؛ أي: عندما يبرز الخوف.

ولكن الخوف أحياناً يؤدي إلى العدوان وإلى الشذوذ الجنسي بمختلف أشكالهما. ذلك أن الخائف يحتاج إلى رموز تخفف عنه، والعدوان هو رمز الشجاعة والانتصار، فهو يعتدي لأقل إساءة بالسباب أو الضرب، بل هو يتحين الفرص كي يسب ويشغب ويضرب حتى يحس بأنه شجاع منتصر غير خائف. عرفت زوجاً اتضح بعد زواجه أن به نقصاً جنسياً، فهو خائف من زوجته ومن الفضيحة إذا عرفت، فكان كل يوم يضرب زوجته حتى تركته بطلاق. ولكن الخوف يحمل الخائف أحياناً على الشذوذ الجنسي؛ لأن الشاذ الجنسي يحس أنه منتصر، إذ إن من يقع به الشذوذ مهزوم أمامه. ومعنى هذا أن أسلوب الحياة الذي يعتمد على الخوف ينتقل إلى أسلوب التعارف الجنسي؛ عدوان في الحياة العامة ثم عدوان في التعارف الجنسي، والشذوذ هنا عدوان.

وكلنا يعرف أن الضعف (الخوف) يؤدي إلى العنف، كما نجد - مثلاً - في وزير يخشى النقد والفضيحة فيبطش بلا حساب. وأحياناً يخاف أحدنا نقيصة في نفسه فيقسو أشد القسوة على غيره إذا كانت به هذه النقيصة نفسها؛ كالقاضي الذي يخشى الشذوذ الجنسي يحكم بأفجع العقوبة على المجرم الذي يتهم بهذه التهمة، كأنه يحاول أن يبعد نفسه عن هذه الجريمة بتكبير العقوبة وقسوتها، فللعقوبة هنا قيمة رمزية له كأنه يقول: يجب ألا أقع في هذه الجريمة لأنها فضيحة وعقوبتها قاسية جداً. وأحياناً تجد رجلاً ينعى على الحرية في الشواطئ؛ لأنه هو نفسه يحس خطورة هذه الحرية على غرائزه ويخافها.

وعندما يشتد الخوف نحتاج إلى الإيمان بأية عقيدة. فالأم التي تخاف المرض أو الموت يقع أحدهما بطفلها تؤمن بالعوذة التي تربطها إلى وسطه، وقد لا يكون فيها غير ورقة بيضاء أو كلمات هي أسماء خرافية، وهي تعتقد في الفأل، وفي دعاء الرجل المسن، كما أنها تخشى العين. ولذلك أيضاً تجد أن الناس لا يستطيعون النقاش بشأن العقيدة؛ لأننا عندما نناقشهم في هذا الموضوع ونحاول زعزعة العقيدة إنما نكون بمثابة من يقول لهم: عودوا إلى الخوف ودعوكم من هذه الطمأنينة، عودوا إلى القلق الذي يعذبكم. والرجل المزعزع يجد في العقيدة سنداً عظيماً.

والزعماء الذين يفشون عقيدة ما ينجحون أكثر من أولئك الزعماء الذين يخاطبون المنطق ويشرحون الصعوبات؛ لأن الجماهير المسكينة التي يعمها الخوف ترتاح إلى العقيدة المطمئنة.

والخوف — كما قلنا — يعمنا بدرجات متفاوتة؛ لأن الواقع أن حياتنا منذ ميلادنا إلى يوم وفاتنا حافلة بالأخطار، ولذلك فإن الشجاعة هي السلامة النفسية، وعلى قدر ما يملك كل منا من الشجاعة يكون سليماً.

ولكن من ناحية أخرى أيضاً يجب أن نقول إننا إذا كنا لا نحس الخوف بتاتاً فإننا لا نجد الحافز للتفكير والعمل؛ لأننا نحتاج إلى شيء من الخوف؛ أي: القلق الذي ينبهنا ويحثنا ويوقظنا. ولكن يجب ألا يكون هذا الخوف أو هذا القلق ثقیلاً طاغياً؛ لأنه — عندئذ — يغم على النفس ويجمد الذهن والجسم. ويمكن أن نعرف السعادة بأنها الشجاعة دون أن نخطئ كثيراً.

ولكننا هنا نعني شجاعة العقل البصير وليس شجاعة العاطفة العمياء. عندما يخاف الحيوان أو الإنسان، يعمد أول ما يعمد، إلى الفرار مما يخاف، ونحن نفر من الخوف إلى التدخين أو الشراب، ولكن الفرار يتسم بالسرعة أو الهرولة. فإذا وجدت رجلاً يهرول ويتعجل في أعماله فاعلم أنه خائف. وأسلوبه هذا في أعماله ينتقل إلى التعارف الجنسي، فهو متعجل مهول من حيث لا يدري، وهو سيئ العلاقة الزوجية لهذا السبب.

وقد تجد رجلاً رجعيّاً يكره أخلاق الشبان والفتيات، ويدعو إلى الماضي المعروف بدلاً من أن يجابه هذا المستقبل المجهول؛ لأن هذه العادات الجديدة قد تعرضه لأخطار جديدة. والخوف من الحرب يحمل الأمة الخائفة على السرعة في الاستعداد للحرب، ثم يؤدي هذا الاستعداد نفسه إلى الحرب.

وخوف الزوجة على بقاء زوجها يؤدي إلى غيرة جنونية ... إلخ، إلخ. وإذن نقول: إن المجتمع الحسن هو الذي تقل فيه المخاوف وتعم فيه الشجاعة أكبر مقدار منها.

وقد قلنا: إن الخوف يعمنا بدرجات متفاوتة، والأصل في هذا التفاوت أننا، ونحن أطفال، ننشأ على شجاعة وإقدام، أو جبن وحذر، فإن الأسلوب الذي نأخذُه عن أبويننا يبقى أصيلاً في سلوكنا إلى أن نبلغ الشيخوخة ما لم تحدث حوادث جسيمة تغيره، فالطفل الذي

قضى طفولته بين أبوين خائفين حذرين ينشأ على خوف والحذر، والطفل الذي لم يكن مطمئنًا عن حياته؛ لأنه كان يضرب في طفولته أو لأنه كان يجد شجارًا لا ينقطع بين أبويه يهدده بالخطر، هذا الطفل لا يجابه الدنيا في شجاعة بل يحاول الفرار، وهو يخنس ويتراجع كلما دهمته كارثة، ويبقى قلقًا طوال عمره. أما ذلك الطفل الآخر الذي قضى طفولته وهو يجد الشجاعة والصراحة والجرأة من والديه وسائر أعضاء أسرته، كما أنه قد هنىء ببيت هادئ يعمه الوفاق والحب، هذا الطفل إذا شب ووقعت به كارثة استطاع أن يتحملها ويجابهها في قوة وعزم؛ لأن أسلوب الطفولة قد لازمه.

وإني أكتب هذا في ديسمبر من ١٩٤٩ وقد عرفت أن في مستشفى الأمراض العقلية تسعة من المثقفين وسبعة عشر من طلبة الجامعة يعانون جميعهم انهيارًا نفسيًا من النيوروز إلى السيكوز، وتعليقي على هذه الظاهرة المؤلة هو هذا:

(١) أن هؤلاء جميعهم لم يهنئوا بطفولة مطمئنة؛ إذ كانوا يضربون أو يخوفون، أو كان آباؤهم على غير وفاق يعممون القلق في بيوتهم.

(٢) أن هناك كظمًا جنسيًا في كثير منهم، وهذا الكظم يحدث توترًا متعبًا، ومنطق التوتر إزاء النفس البشرية أحد، وهو قلق حاد؛ فالكظم الجنسي، والخوف من الخيبة في الامتحان عند الطالب، والخوف من الخيبة في المباراة العامة عند الأطباء، كل هذا يحدث في النفس رجعًا واحدًا هو القلق الذي لا يطاق، والذي يجبر في آثاره نيوروزًا أو سيكوزًا. (٣) كان هذا القلق أحرى أن يخف أو يزول تمامًا لو أن الطفولة كانت هنيئة، أو لو أنه لم يحدث كظم جنسي، أو لو أن المباراة للكسب عند الأطباء أو الخوف من الامتحان عند الطلبة لم يبلغا حدًا طاغيًا.

(٤) وأيضًا كان هذا القلق يخف لو أنه كانت هناك فترات من الراحة والاسترخاء، فإن طالب الطب يقضي السنوات الثلاث الأخيرة من دراسته بلا إجازة يستريح فيها ويسترخي، وهذا إجرام.

وعلاج الخوف يتضح من ذكر أسبابه، فإذا ألغينا الأسباب ألغينا الخوف.

كيف نعالج الخوف؟

هذا العنوان مخطأ، وصوابه أن نقول: كيف نعالج كظم الخوف.

ذلك أن الخوف مما تلقى من أخطار طبيعي، فنحن حين نلقى ذئبًا ونخافه فنجري وننجو لا يحدث لنا أي ضرر أو مرض، فقد خفنا وفررنا وانتهى الخوف، ولكن إذا كنت أنا بغرفتي ثم رأيت ثعبانًا ضخماً يتسلل إلي من النافذة، ثم عجزت عن الفرار من الغرفة لأني حاولت أن أفتح الباب فلم أعرف، أو لأني ارتبكت لفرط التأثر ووجدت نفسي محبوسًا مع هذا الثعبان الضخم، فعندئذ أجدني في كظم لا يطاق، فأنا أتجلد وأحمل على نفسي بالشجاعة أو التشاجع، وهذا هو المرض.

فليس الخوف مرضًا ولكن كظم الخوف هو المرض، وهكذا الشأن في الأمراض المتفشية؛ إذ هي كظوم مختلفة؛ أي إننا نخاف ثم نجد أن مجتمعنا يمنعنا من الاعتراف بالخوف والعمل على التخلص منه، ولذلك محض الحديث عن الخوف وبث الشكوى إلى صديق أو طبيب يخففان من الخوف وأشباهه؛ كالغيرة والشك ونحوهما.

فالتلميذ يخاف الامتحان ويخجل أن يذكر ذلك.

والجندي يخشى القتال ولا يبوح بما في نفسه.

والفتاة تخشى أن تتأخر بها سن الزواج. وكرامتها تمنعها من ذكر ذلك.

والزوجة تخشى الضرة أو الطلاق أو الكهولة التي تنقص من محاسنها.

وكلنا نخشى الفقر، وكذلك نخشى المباراة العامة لجمع الثروة لئلا نفشل أو نفلس.

والأم تخشى المرض أو الموت لأولادها ... إلخ.

ونحن كلنا نخاف ولكننا ننكر أننا نخاف، وحتى حين لا ننكر ذلك نجد أن المجتمع

يعرضنا للخوف، كتلك الأم التي تخشى الحوادث في الشوارع ثم لا تستطيع أن تمنع

صبياتها من الخروج من البيت؛ لأن الحضارة تقتضي ذلك.

والخوف إحساس بدائي حيواني يتصل بفسولوجية الجسم القديم قبل أن نكون بشرًا، وهو يهجم بقوة بدائية مرغمة بحيث لا يستطيع المخ الجديد التصرف به أو ضبطه أو محوه مع منع الضرر أو الخطر، ولذلك عندما نحسب هذا الإحساس، نجد أنه قد التوى علينا، فيعود وساوس مزعجة أو قلقًا أو أرقًا أو همًا مترددًا، وأحيانًا يندس إلى أعضائنا الداخلية فيفسد الأمعاء بالإسهال، أو يصيب المعدة بالقرحة، أو القلب بالخفقان، أو الرأس بالدوار.

ويجب لذلك ألا نقاوم الخوف وإنما نعالجه، والعلاج الأول هو الامتناع عن الكظم، وذلك بأن نبوح بما في النفس لصديق أو زوجة، ونبت الشكوى لهما، ونتحدث ونتجادب المشكلة التي نخافها. ومعنى هذا ألا نجتر الموضوع الذي نخافه؛ لأن الاجترار هو استهلاك بلا إنتاج، ولكن عندما نشترك مع صديق في بحث الموضوع الذي نخافه نجد منه تحليلًا موضوعيًا يغلب عليه العقل، أما حين نجتر نحن هذا الموضوع فإن تفكيرنا فيه يبقى ذاتيًا عاطفيًا.

ومجتمعنا يحفل بالمخاوف، كما أنه يطالبنا بالكظم، ومن هنا القلق العام الذي لا يكاد يخلو منه فرد، وإنما يتفاوت الأفراد في مقداره.

(١) وأول ما نحتاج إليه في معالجة الخوف أن يكون أبوانا أيام طفولتنا قد أوجدا جواً من الطمأنينة في البيت؛ لأن هذا الجو يعوّدنا الشجاعة، فلا نخرج إلى الدنيا ونحن خائفون نجزع لأقل خطوة، بل نواجه الأخطار الكبيرة بقلب جريء؛ لأن نفوسنا مطمئنة، وعادات البيت الأولى باقية فينا. ولكن يجب ألا نتكلف الشجاعة؛ لأن التكلف كظم للخوف، والشجاعة الناجعة هنا هي تلك التي اكتسبناها عادة رسخت عندنا منذ الطفولة.

(٢) أما العلاج الثاني، فهو أن نعيش في مجتمع لا يغرق في المباراة التي تبعث على الجهد المضني وتثير الخوف والحسد والغيرة، والمجتمع الريفي أقل مباراة من المجتمع المدني؛ لأن المطامع فيه محدودة، ونستطيع أن نقلل من شأن الروح الاقتنائي وننقص من حدته بأن نوضح فضائل القناعة والاعتدال، ونشغل النفس باهتمامات أخرى غير جمع المال. ولكن كل هذا لا يجدي قليلاً أو كثيراً إذا كان الوسط الذي نعيش فيه اقتنائياً مغرقاً في المباراة؛ لأنه يكون لها عواطف اقتنائية، ويدفعنا إلى المباراة وإلى كل ما يجري في أثرها من خوف الفشل أو التخلف أو الغيرة ... إلخ.

كيف نعالج الخوف؟

(٣) قد يخفف من الروح الاقتنائى في المجتمع إيجاد ضمانات اجتماعية كما هي الحال في إنجلترا؛ مثل التعويض عن العطل، أو المعاش بعد سن الستين، أو المعالجة المجانية أو التعليم المجاني، فإن هذه الضمانات تقلل من الخوف.

(٤) يجب ألا ننسى أن الجسم والنفس وحدة غير منفصلة؛ فراحة الجسم تؤدي إلى راحة النفس، وكذلك العكس، ولذلك إذا تفاقم الخوف حتى صار نيورزاً فإن الانطراح على الفراش والبقاء فيه جملة أيام هو خير ما يجب أن نفعّل، ولكن قد يكون السرير هنا فرصة لزيادة الاجترار؛ أي: زيادة القلق، ولذلك يجب أن يكون هناك صديق يحدث ويسري عنا القلق.

(٥) يجب ألا نكتم ما نخافه؛ أي: يجب أن نبوح به.

(٦) هذا البوح درجات؛ فإني أبوح لصديقي عما أخافه، وفي هذا تخفيف، بل تعقيل من صديقي لي؛ إذ هو سيحدثني ويخفف عني ويخرجني من العاطفة المظلمة إلى العقل النير، ثم هناك درجة أخرى، وهي أن أبوح لِنفسي بما أخافه، كأن أقعد إلى مكتبي أشرح لِنفسي كيف تكون هذا الخوف عندي، ومتى كان ذلك، وما هي نتائج هذا الشيء الذي أخافه. أفعال هذا وكأني أحلل نفسي، وفي الأغلب عندما أكتب تاريخ هذا الخوف أجد أنه لم يكن يستحق اهتمامي. وأخيراً هناك البوح الكامل أو العليّ، وهو أن أقعد إلى رجل قد اختص بالتحليل النفسي، فهو يسألني وأنا أجيب.. فينكشف المخبوء الذي كنت أخبئه ليس عن صديقي فقط، بل عن نفسي.

(٧) وهناك علاج هو أشبه بالوقاية، وهو أن تتعدد اهتماماتنا في هذه الدنيا، حتى لا يستأثر اهتمام واحد بكل قوانا النفسية، فإذا فشلنا فيه؛ أي: في موضوع هذا الاهتمام الواحد، أحسنا أننا قد فشلنا في الدنيا.

ولذلك من الحسن أن يهتم التلميذ الذي يخشى الامتحان بالتفرج في الدور السينمائية، وباللعب، وباتخاذ هواية ما إلى جنب دروسه. ويجب على الآباء ألا يعتقدوا أن في هذا مضبعة لوقته؛ لأن التلميذ الذي ينفق بعض وقته في هذا النشاط قبل أن يحس الخوف المؤلم الذي قد يتفاقم إلى نيوروز؛ وكذلك الشأن بالتاجر الذي يجب أن يسري عن نفسه همومه المالية بالقراءة أو الزيارة أو أي نشاط اجتماعي أو رياضي آخر، وهلم جرّاً.

الهموم سموم!

يعرف الصيادلة عشرات من السموم المعدنية والنباتية التي تستطيع أن تمزق الأمعاء، أو توقف القلب، أو تشل الأعصاب وتؤدي إلى الموت في أقل من ثانيتين أو بضع دقائق، ولكن القارئ قد لا يدري أنه هو نفسه يفرز سمًا لا يقل في قوته عن هذه السموم الصيدلانية، ويستطيع أن يقتله في أقل من ثانيتين أو بضع دقائق.

وهذه السموم هي عواطفه: عواطف الخوف، والغضب، والكراهية، والغيرة، والشك. ومن الأمثلة التي يجب أن تثبت في أذهان الجمهور أن «الهموم» هي مخاوف مترددة، وضررها أكبر جدًّا؛ لأنها غامضة غير موضحة بحدود؛ فهذه الزوجة تخشى أن يتزوج زوجها أخرى، فهي تدرس كلماته وإيماءاته وهي خائفة مهمومة. وهذا التاجر يخشى المطالبة بديونه أو كساد تجارته، فهو يجتر مخاوفه كما تجتر البقرة طعامها، يخرج هذه المخاوف من صدره إلى عقله، ثم يرددها، ثم يعود فيخرجها، وهو طيلة هذه المدة خائف، قلبه يدق وخواطره تتردد عليه وتغم على نفسه. وهذا الطالب يخشى الرسوب قبل الامتحان بنحو ثلاثة شهور، أو الموظف يخشى معاكسة رئيسه وتربصه به.

هذه هي الهموم، هذه هي المخاوف الغامضة التي تحمل شكوكًا وشبهات؛ أي إننا نتوقع الكارثة التي قد لا تقع، بل الحق أنها لو وقعت لما كان ضررها قريبًا أو مساويًا للشك في توقعها ووقوعها.

الهم هو الشك، هو السم الذي يدور في كياننا ويقتلنا.

وهو ليس سمًا بالمعنى فقط؛ إذ هو سم بالمادة أيضًا؛ ذلك أن عواطف القلق والخوف التي يحدثها الهم في نفوسنا تثير بعض الغدد الصماء، فتفرز سوائل خاصة تجري في جسمنا، فيزيد الضغط للشرايين إلى حد لا نتحملة، إذ ينفجر الشريان ونموت فورًا في ثانية أو ثانيتين.

وهذه العواطف هي جهازنا الدفاعي القديم الذي كنا نستخدمه قبل مليون أو مليوني سنة، حين كنا حيوانات نعيش بالعاطفة وليس بالعقل، وإلى الآن نحن نجد أن الحيوان كائن عاطفي يستجيب للطوارئ بالهجوم أو الفرار، وبالمصارعة أو الخضوع، فهو يحرق عاطفته أو يلغيها بهذه الحركات؛ ولذلك لا يمكن أن تقتله هذه العواطف. أما نحن فنكظمها؛ نكظم الغيظ، ونكظم الغيرة، ونكظم الخوف؛ إذ يجب أن نحسب ما سوف نكون عليه بعد عام أو خمسة أعوام، وماذا يحدث عندما نموت، أو عندما يموت الأب أو الزوج أو الابن، والحيوان لا يحس هذه العواطف؛ إذ ليس له مستقبل.

همومنا هي عواطفنا التي لم نهضمها، وهي مادة عاتقة لحركة الجسم والنفس. وهي في حالنا المدنية الأخيرة لا تختلف عن الأظافر التي كنا نتسلح بها قبل مليون سنة ولكننا عرفنا ما هو أفعال منها، ولذلك نحن نقلمها، ولكننا لا نقلم عواطفنا بل نتركها مكظومة فتسبب شراييننا وأعصابنا فنقتلنا.

وقد نشأ لنا عقل كان يجب أن يأخذ مكان العواطف ويؤدي مهمتها، ولكن قل منا من يفعل ذلك أو يقدر على ذلك، ومثل هذا الشخص حين نراه نعهده فيلسوفاً؛ لأننا لا نجد الكثيرين منه.

وهذا المتعقل يسوس نفسه ويتصرف في شئونه بالمنطق الاجتماعي، وعندما يحس عواطف الغضب أو الغيرة أو الخوف يتأمل هذه العواطف في وجدان وتعقل ومنطق فتنهزم وتنمحي، فهو لا يكظم ولكنه يحلل.

العاطفة بخار محبوس، وليس هناك من سبيل للتخلص منها سوى الاعتماد على عقولنا.

ومما يجدر ذكره أن هذه العواطف القاتلة تتفشى بين أفراد الطبقة المتوسطة؛ وذلك لأن أطماع هذه الطبقة كثيرة جداً، وسبيل تحقيقها ليس سهلاً؛ فطبقة الفقراء التي استسلمت لحالها وارتضت مكانها ليس لها أطماع تثير عواطف الخوف من الفشل أو الشك في ما يتوكل إليه الغد؛ ولذلك قل أن نجد رجلاً يشكو علة نفسية بين الفقراء، وكذلك الشأن بين الأثرياء في الطبقة العالية؛ إذ إن أفرادها يجدون كل ما يصبون إليه، فلا خوف ولا قلق ولا مطامع.

أما الطبقة المتوسطة التي تليها وتخشى من التردى إلى الطبقة التي تسفلها من الفقراء، فهي بين هموم دائمة، وعواطف ثائرة، وسموم تسري في عروقه.

وعلاج هذه الحال هو الحد من مطامعنا وتسويد العقل على العاطفة، ويجب أن نعلم أن عواطفنا هي أظافرنا التي لم تقلم، وأنها يجب أن نسير في هذه الدنيا بعقولنا

الهموم سموم!

الجديدة، وإذا كنا نجد أننا مظلومون فإن هذا الظلم ليس حالة خاصة بنا، وإنما هو خطأ اجتماعي يجب أن يصلح، وإذا نحن اندمجنا في حركة. ومن أفضل الوسائل للتغلب على عواطفنا وهمومنا أن الصلاحية عامة، فإن هذا النشاط الجديد ينير طريقنا ويكسب حياتنا قصداً، ويضع الوجدان والتعقل مكان العاطفة والهم، نعدم إلى القلم فنكتب ونشرح هذه الهموم؛ ذلك لأن الكلمات ترفع الهم الغامش إلى التعبير الواضح، وبذلك نحصر الهموم في حدودها، ونزيل عنها هذا الغموض، ونكشف عن حقيقتها التي تبدو لنا — عندئذ — أنها تافهة لا تستحق أن يشتغل بها بالنا.

الطيبة طيبة

جرت على ألسنتنا عبارة «الحرب الباردة» منذ السنوات الأخيرة، وقد فهمنا منها هذا الصراع الصامت بين كتلتي الشرق والغرب في برلين وغير برلين، حين يحتقن الغضب والخوف والريبة في كل منهما، وكلتاهما تستعد للحرب الحامية مع ما يبدو عليهما من الطمأنينة الكاذبة والتفاؤل الزائف.

وهذه العبارة؛ أي: «الحرب الباردة»، تعد من أحسن العبارات التي نستطيع أن نصف بها الحال التعسة التي يحيا بها بعض الناس، فهم في حرب بينهم وبين غيرهم من حيث الحسد والغيرة والبغض والحقد والخوف والشك، وهم في حرب باردة أيضاً بينهم وبين أنفسهم لهذه الصفات نفسها التي تنتقل معهم من المكتب إلى المنزل، فإذا أوى أحدهم إلى فراشه جعل يستعيد أحقاده كأنه يجترها، وهو يأكل بها نفسه، ويضني قواه ويسمم جسمه وعقله بالأفكار الحمراء أو السوداء بشأن هموم ومخاوف كان يستطيع الاستغناء عنها أو التخفيف منها لو أنه نظر نظرة الوجدان وليس نظرة العاطفة.

والمجتمع الاقتنائي الذي نعيش فيه ونأخذ بأخلاقه يغرس في كل منا منذ الطفولة رغبة جنونية في الاقتناء، حتى ليصبح برنامج حياتنا أن نجمع أكثر ما نستطيع من عقارات ومنقولات، وننسى المثل القائل: «ليس للكفن جيوب».

وهذه الرغبة الجنونية في الاقتناء تحملنا على أن نقيس الشرف والعظمة والكرامة والسعادة والتفوق بالاقتناء، وننسى أن إنساناً عظيماً مشى على هذه الأرض في عصرنا، هو غاندي، لم يكن يقتني سوى عنزة، وأن عظمته كانت في بعض جوانبها تستند إلى الاستغناء دون الاقتناء.

ومن هنا تنشأ هذه العواطف الكريهة التي نتصور منها حين العجز عن الاقتناء، أو عن المعاني التي تلابسه والتي قد ألقىها المجتمع به، وهي عواطف تشقينا وتشعل في

نفوسنا حرباً باردة في صحونا، بل أحياناً في نومنا، فإن كثيرين ممن يبدو عليهم الهدوء والسلام إذا ناموا انفجرت نفوسهم بما انطوت عليه من حقد وغيره وبغض وخوف، فهم يشتمون خصومهم وقت النوم، وهم يصرخون خوفاً من كابوس قد تجسمت فيه أوهام النهار والليل في صحوهم ونومهم.

وأي شقاء أكبر من هذا؟

وعلاج هذا الحال ميسور لكل من يتعقل ويرفض الانسياق في تيار هذه العواطف، وهو علاج معروف بين العامة قبل الخاصة، فإننا جميعاً نعرف طراز الرجل الطيب الذي يأنف من البغض والحسد والحقد والغيرة، هذا الرجل القانع الذي يكاد أن يتجنب الاقتتاء؛ لأنه يخشى مسؤولياته وأعباءه، هذا الرجل لا تسمع منه كلمة الدم أو التنقص لأحد الناس، وقد يقضي على هذه الأرض سبعين أو ثمانين عاماً لا تطأ قدمها طولها أرض المحكمة شاكياً أو مشكواً.

مثل هذا الرجل سيد لأنه طيب، ولذلك يجب أن نذكر أن الطيبة طيبة، وأنها الدواء الذي يجب أن نستشفي به من أمراضنا النفسية، وبدلاً من شراء الأدوية لمعالجة الضغط العالي للدم، واضطراب القلب، والقرحة المعوية، بدلاً من هذا يجب أن نتعلم كيف نتخلص من عواطفنا الكريهة، ونتعقل في وجدان، ونقيس القيم الاجتماعية على صحتها دون أوهامها، ونحاول أن نكون طيبين؛ لأن الطيبة هي الدواء الناجح لجميع أمراضنا النفسية. وبدلاً من أن نطمع في أن يقال عنا إننا وجهاء أو أثرياء علينا أن نتوخى الطيبة والقناعة.

ولكن هذه الطيبة أو هذه القناعة إنما نعني منهما حالاً شخصية في الشؤون الشخصية، أما إذا كان الشأن بشرياً أو وطنياً، أو يتصل بقضية عامة للحق أو الشرف، فإننا يجب أن نتحمل مشاقه، وأن نرضى بكل تضحية في سبيله، وموقفنا هو موقف غاندي الذي كان يخلو من جميع الهموم الشخصية، ولكنه كان يحمل جبالاً من الهموم الوطنية والبشرية، وكان سعيداً بذلك.

ومما نلاحظه في الهموم الشخصية الأناثية؛ كالخوف من الفقر أو العار أو الشك في النجاح في المهنة أو الغيرة من نجاح الآخرين في المباراة الاقتصادية العامة بين الأفراد أو نحو ذلك، هذه الهموم كثيراً ما تحطم النفس، ولكننا حين نندغم في حركة وطنية أو بشرية سامية نجد أن الكفاح فيها، وما قد يجره من تضحيات هائلة؛ كالسجن والفقر والحرمان والنفي، كل هذه الكوارث لا تحطم النفس، بل هي ترفعها وتزيدها كرامة ومكانة.

وهذا هو ما يجب أن ننتظر؛ لأننا في همومنا الشخصية؛ كالرغبة في الثراء مثلًا، إنما نطلب بهذا الثراء كرامة ومكانة في المجتمع، ونحن نفقدهما بالفقر، ولكن هذا المجتمع نفسه يعطينا الكرامة والمكانة حين نكافح كفاحًا عامًا من أجل الحرية أو العدل أو الاستقلال أو السلام، حتى لو حكم علينا بالسجن والنفي والفقر والحرمان. وإذن يجب أن نكون طيبين مسالمين في علاقتنا الشخصية، قانعين بالكفاف من العيش لأشخاصنا؛ لأن هذه الحال هي حال الصحة النفسية، ولكن يجب أن نكون مكافحين طموحين غير قانعين، ننشد الآفاق الاجتماعية والبشرية السامية.

مشكلات الشباب

تبدأ مشكلات الشباب حوالي الرابعة عشرة من العمر حين يحس المراهق أنه إزاء قوة جنسية بادئة، ولكنها متسلطة طاغية، وهو يجد من الظروف الاجتماعية ما يصدده، بل أحياناً ما يخزيه مما يحس ومما ينشد، فالحياة أمامه ملتغزة لا يفهمها، ومرهقة لا يتحملها، وهو يلجأ إزاء هذه الحال إلى نوع سيئ من النشاط الجنسي في الظلام. والعادة أن الشاب فيما بين سن الرابعة عشرة وسن العشرين ينشد في خياله فتاة أو سيدة أكبر منه سنّاً بنحو عشر سنوات، وكذلك الشأن في الفتاة، فإنها لا تستجمل من في سنها، وإنما تنشد رجلاً يزيد على عمرها بنحو عشر سنوات أو أكثر؛ ولذلك نرى كثيراً يتزوجن بشبان يكبرونهن بخمسة عشر أو عشرين سنة، وعلى الرغم من الفارق العظيم بين العمرين فإن الزواج يبني على الحب، ولكن من الحسن ألا يزيد فرق السن على عشر سنوات.

والمشكلة الجنسية في هذه الفترة من العمر متعقدة، بل ملتغزة، وليس ذلك لأن التعقد أو الالتغاز أساسيان في الطبيعة البشرية، ولكن لأن المجتمعات المتمدنة قد جعلت سن الزواج متأخرة، بل أحياناً متأخرة جداً؛ ولذلك لا يعاني الشاب الذي يعيش في وسط بدائي أو زراعي، مثل هذه الصعوبات التي يعانيها الشاب في وسط المتمدن؛ إذ هو يتزوج في سن مبكرة، بل أقول أكثر من ذلك، وهو أنه يختلط بالجنس الآخر اختلاطاً يرفه ويخفف عنه قبل أن يتزوج.

ولا يمكن أن يقترح الإنسان حلاً حاسماً لهذه المشكلة؛ لأن هناك حالات شخصية يجب أن تكون محل الاعتبار والتقدير، ولكن حسبنا أن نقول بوجه عام إنه يمكن التبكير في الزواج، أي حوالي سن العشرين، إذا كان الزوجان يتفقان على الامتناع عن التناسل، وإذا كانت الزوجة ترضى بأن تعمل وتكسب كما يعمل ويكسب زوجها، وهما إذا فعلا

ذلك، فإن نفقات العيش لا تزيد على الزوج، إذ هو يعيش — عندئذ — مع زوجته ولا ينفق أكثر مما كان ينفق وهو أعزب. وقد أخذ الأمريكيون بالزواج المبكر على هذا الأساس الجديد، وهو أن الزوجة تعمل وتكسب، ثم يؤجل التناسل سنوات حتى يجد الزوجان أنهما قادران على نفقات الأطفال، وقد تكف الزوجة — عندئذ — عن العمل والكسب أو لا تكف.

وباشتغال المرأة في الأعمال العامة وتكسبها عاد الوسط المتمدن في كل من أمريكا وأوروبا إلى حال تشبه الحال التي يعيش فيها البدائيون والفلاحون في الريف الساذج، ولكننا في مصر نعاني صعوبات كثيرة تمنع التبكير في الزواج، وأهم الموانع هو — بالطبع — أن الشاب في بداية حياته الاكتسابية لا يستطيع أن ينفق على زوجة متعطلة في البيت ثم على أطفالها.

والطلبة في الجامعات الأمريكية يتزوجون الطالبات، ولكن الفرق بين الطالب المصري والطالب الأمريكي أن هذا الثاني يكسب؛ إذ هو إلى جنب دراسته الجامعية يؤدي عملاً ما، وهكذا أيضاً الشأن في زوجته الطالبة، وهذه حال لن نبلغها في مصر إلا إذا ارتفعت الأجور.

ونحن لا نزال نحتاج إلى سنوات قبل أن نعمم الاختلاط بين الجنسين حتى يخف الإرهاق الجنسي، وبهذا الاختلاط يزول الشذوذ الجنسي بين الشبان، كما تزول العادة السرية. وقد شاع الشذوذ الجنسي في الأمم الشرقية لهذا الانفصال القائم بين الجنسين، كما أن شبابنا يمارسون العادة السرية مع اشمئزازهم منها وكراهيتهم لها لهذا الانفصال أيضاً، ولست أعني أن أوروبا وأمريكا تخلوان من هاتين الرذيلتين خلواً تاماً، وإنما أعني أن الشباب هناك أقل انغماساً فيهما من شباب الأمم الشرقية؛ لأنه يختلط بالجنس الآخر. والمشكلة الجنسية هي بؤرة المشكلات عند الشبان، ومن هذه البؤرة تتشعب مشكلات أخرى؛ ذلك أن النشاط الجنسي هو الأساس لألوان مختلفة أخرى من النشاط الاجتماعي والثقافي والحرفي والفني.

فالشباب عندما يخرج من المراهقة ويشرع في الرجولة يحس شهامة جديدة تجلب له مشكلات جديدة، فهو لا يطيق تدخل أبويه في سلوكه، ولا يحب أن يستمع إلى نصيحتهم بشأن اختيار الأصدقاء أو السهرات أو الملاهي، وهو يأخذ بتجارب اجتماعية جديدة كي يؤكد أن له شخصية؛ فهو يدخن، أو يربي شاربه بضعة أشهر، أو يصطنع في حديثه لهجة شاذة كي يظهر ويبرز، وكل هذه محاولات لا بأس بها، ويمكن أن يرتد عنها إذا

كان الناصحون له يصونون كرامته ولا يجرحون شهامته المبتدئة، فإنه في هذه السنوات يحاول أن يتخلص من طفولته، وأن يتخذ أسلوبًا يؤكد به استقلاله، وكل هذا حسن يجب ألا نعترض عليه، وإنما نوجه الشاب ونبين له المجتمعات الحسنة التي يجب أن يعرفها وينتفع بالاختلاط بها.

والشاب في سن الاستطلاع الجنسي ينبعث نحو استطلاعات أخرى، فهو يسأل عن الله والدين ومعاني الشرف والطمهارة، ويشعر في دراسة السياسة ويقتني الكتب. وقد كانت سن الخامسة عشرة عندي سن الحمى الثقافية التي كان يبعثها عندي كظم جنسي مؤلم، لم نكن نعرف — وقتئذ — كيف ننفجر منه؛ لأن الانفصال بين الجنسين كان تامًا مئة في المئة.

ويجب أن تتوافر للشباب في هذه السن الكتب والجرائد والمجلات الجدية التي تحيله إلى رجل جد وشرف وشهامة، وللأسف لا يجد شبابنا هذه الوسائل الثقافية، وإنما يجدون بدلاً منها مجلات مصورة تخريبهم بممارسة العادة السرية وتعطيهم صورة مخطأة عن المرأة، بل إن هذه الصور كثيرًا ما تخيفهم من الزواج وتصددهم عنه.

وشعاع آخر يشع من بؤرة الاستطلاع أو القلق الجنسي، هو الاتجاه الفني، فإن الشاب يستجمل صورة الفتاة ووجهها وقوامها، ويتخيلها في أوضاع مختلفة، وهذا الإحساس بجمالها ينتشر في أرجاء نفسه إلى إحساس بجمال الشفق والطبيعة والشجر، وإلى تقدير الموسيقى والغناء والرقص، وإلى التألق في تفكيره، بل هو قد ينظم الشعر وقتئذ.

ويتشع أيضًا من سني الاستطلاع الجنسي اختيار الحرفة؛ لأن الحرفة والعائلة والزواج وكسب العيش كل هذا مركب سيكلوجي واحد يعود إلى الغريزة الجنسية، وكل واحد من هذه الأشياء يتصل بالآخر.

وأخيرًا يجب أن أقول إن صعوبات الشاب في مصر أثقل من الصعوبات التي يلاقيها الشباب في أمريكا أو أوروبا؛ لأن الاختلاط بين الجنسين هناك قد خفف إلى حد كبير من إرهاق الغريزة الجنسية، كما أن الفرص الاجتماعية للشباب أكثر مما هي عندنا، ولذلك يجب أن نعطف على شبابنا، وأن نقدر صعوباتهم ونيسرها ونمهد لها كلما حانت فرصة.

متاعب الشباب الجنسية

كتب إليّ شاب في سن السابعة عشرة يقول إنه عندما يرى صورة فتى في سنه أو أصغر منه، أو عندما يقابل أحداً في هذه السن، يحس رعشة تزلزل جسمه حتى يكاد يغمى عليه، وأنه يتخيل عن هذه الصورة أو هذا الشخص اللذين يلقاها خيالات متعاقبة لها قوة جبرية؛ إذ لا يستطيع التخلص منها، وهي خيالات الإعجاب العظيم حين يكون هناك مكان لهذا الإعجاب، وهو يقول بالحرف: «ومهما يكن من شيء فأني أشعر بهذا الميل كذلك عندما أكون سائراً في طريق، أو عندما أقابل أحد أصدقائي بصحبة شاب أو شبان معه، أو عندما أقابل أحد أصدقائي بصحبة شاب أو شبان معه، أو عندما أكون في مجلس من مجالس الحديث، أو في اجتماع من الاجتماعات، فيقع نظري على هؤلاء الشبان ... فماذا أشعر ... أشعر بهذه القوة التي تصعد من نفسي في حرارة والتهاب، وماذا أجد؟ أجد ذلك الميل القوي العنيف وما يتبعه من انفعالات حادة ... إلى هنا لا أدري من أمري شيئاً، نفس الدافع المجهول ونفس الشيء الغامض اللذان أحس بهما عندما تقع عيناى على صورة ... وإلى هنا لم يصور الخيال شيئاً من تلك الصور الرائعة أحياناً أخرى، والمتردة بين ذلك في بعض الأحيان ... ثم ماذا ... إن قلبي يدق دقاً عنيفاً، ويضطرب اضطراباً شديداً ... كل ذلك في مثل ومضات البرق المتلاحقة التي لا تكاد تظهر حتى تختفي، ولا تكاد تختفي حتى تظهر ...».

هذه عبارات قليلة من ثماني صفحات كتبها هذا الفتى الذي لم يكد يتجاوز المراهقة. وهذه الإحساسات تكاد تكون طبيعية في جميع المراهقين، وأيضاً المراهقات، وقد تستمر إلى العشرين؛ وهي أن الشاب يعجب بشاب آخر في سنه أو أصغر منه، والفتاة كذلك تعجب بفتاة أخرى في سنها أو أصغر أو أكبر منها.

وهذا الإعجاب هو بالطبع جنسي في أساسه؛ أي: إنه شاذ، وكثيراً ما يحدث الاتصال الشاذ في هذه السنين.

ولكن إذا كانت البيئة حسنة، وكان الاختلاط بين الجنسين مباحاً، فإن هذا الاتجاه الجنسي الشاذ يتجه نحو الجنس الآخر، وينسى الشاب إعجابه بالشبان كما تنسى الفتاة إعجابها بالفتيات، وعندئذ يعود كلاهما إلى الحال السوية، وهذا هو ما يحدث في أوروبا وأمريكا وجميع الأقطار التي تجيز الاختلاط بين الجنسين في المجتمع وفي المدرسة الابتدائية والثانوية والجامعة.

وذلك لأن الخيال الجنسي يتربى بالاختلاط ويصل إلى هدفه، فالشاب يحب الفتاة أو الفتاة تحب الشاب؛ لأن كلاهما — بالاختلاط — مائل أما الآخر لا يغيب، أما إذا كان هناك فصل وحرمان بحيث تعيش الفتيات منعزلات في مدرسة داخلية — مثلاً — فإن خيال الشاب ينقشع من إحساساتهن، وعندئذ تتجه الطاقة الجنسية نحو الفتيات، وكذلك الشأن في الشاب الذي لا يرى غير الشبان، فإن خياله — لهذا الحرمان — يتجه نحو شاب آخر.

ثم إذا دامت هذه الحال جملة سنوات؛ وخاصة في سني التوتر الجنسي فيما بين الخامسة عشرة والعشرين، فإن هذا الاتجاه الشاذ يثبت وينمو في هذا الاتجاه، ويصعب — عندئذ — أن نجذب الشاب من جديد إلى المرأة، كما يصعب أن نجذب المرأة إلى الرجل؛ لأننا في الحالين إزاء شذوذ قد تربى ورسخ، ولكن ليس معنى الصعوبة هنا التعذر التام، وإنما نعني أن كلاهما يحتاج إلى تربية جديدة ومرانة جنسية جديدة.

ويكثر الشذوذ في مصر للانفصال القائم بين الجنسين، وهذا الشذوذ يغلب في المدن ويندر في الريف؛ لأن الاختلاط في الريف متوافر بسبب الأعمال الاضطرارية التي تجمع بين الجنسين، بل كذلك الحال في الطبقات الفقيرة في المدن، فإن الانفصال ليس تاماً، ولذلك لا يكثر الشذوذ الجنسي في هذه الطبقات كما يكثر بين أفراد الطبقة المتوسطة؛ وخاصة لأن سن الزواج تتأخر بين هذه الطبقة.

ولهذا الوضع الاجتماعي أثر آخر؛ فإن العادة السرية بين الريفيين من الجنسين، وكذلك بين الطبقات الفقيرة في المدن، تكاد تكون مجهولة، بخلاف الحال بين الطبقة المتوسطة حيث تفشو كثيراً.

وعلة ذلك واضحة، وهي أن سن الزواج بين الريفيين وبين أفراد الطبقات الفقيرة في المدن تكون عادة مبكرة، ولكنها تتأخر بين أفراد الطبقة المتوسطة، ثم إن الاختلاط

الجنسي بين الريفيين وبين فقراء المدن متوافر، وهذا الاختلاط نفسه يجعل العادة السرية بعيدة عن الذهن والخيال؛ لأنه يجر كلاً من الشاب والفتاة إلى الواقع، وهذا الواقع ليس مغرياً إلى درجة الجنون أو الحماسة التي تحمل على ممارسة العادة السرية بإسراف؛ أي: إن هذا الاختلاط يبعث على الاتزان الجنسي.

أما الحرمان فإنه يثير خيالات بعيدة عن الواقع، وهي خيالات تنحو نحو الكمال الكاذب الذي لا يتحقق في كل من المرأة والرجل، وعندئذ تطغى الرغبة الجنسية وتغري بالعادة السرية.

وعندما يتناول الحرمان بين الجنسين أيام المراهقة نجد حالاً غريبة عند الشاب، هي الفصل بين الأحلام الخيالية المتسامية التي تمثل المرأة في جمال رائع ونفس عالية، وبين الشهوة الجنسية الغشيمة التي تمثلها العادة السرية، وعندئذ تنشق شخصية الشاب في الاتجاه الجنسي، أو هو يعيش حياتين جنسيتين مختلفتين: حياة الأحلام المثلى وخيالاتها اللذيذة عن المرأة، وحياة الشهوة السفلى وما فيها من ضعة وهوان.

وهذا الانشقاق يؤذيه أكبر الأذى في مستقبله؛ لأن شخصيته لا تتناسق ولا تتواءم، إذ هو مزعزع بين وزنين وقيمتين لا تكاد توجد بينهما صلة.

والعلاج السليم للشذوذ الجنسي، وأيضاً للعادة السرية، هو الاختلاط بين الجنسين؛ بحيث يعيش الشبان مع الفتيات من المهد إلى اللحد ليس بينهما انفصال، حتى تتجه الطاقة الجنسية نحو هدفها الطبيعي.

ثم بعد ذلك يجب التبكير في الزواج، ولم يعد هناك من الموانع ما يحول دون ذلك في عصرنا، فقد كان التأخير يعلل بأن الشاب قبل الثلاثين لا يستطيع أن يعول عائلة. ولكن من قال إنه يجب أن يعول عائلة قبل هذه السن؟ بل من قال إنه يجب أن يعول حتى زوجته؟

يستطيع الشاب أن يتزوج في العشرين، ولكن يجب أن يتزوج فتاة عاملة كاسبة مثله، أو إذا كانت طالبة — مثلاً — فإن أبويها يعلمانها وهي متزوجة، ثم يمتنع الزوجان عن التناسل بضع سنوات إلى أن يجدا القدرة المالية للتناسل، ومنع الحمل في أيامنا مكفول ميسر.

وقبل أن نترك هذا الموضوع يجب أن ننبه إلى أن شيئاً من الكظم المعتدل للشهوة الجنسية (القصدي وليس القهري) يعود بالنفع والقوة والصحة لكل من الشاب والفتاة، بل إن هذا التحفظ يؤدي إلى اتزان أخلاقي حسن، وليس أبغض من الفتاة المستهتره أو الشاب المستهتر.

محاولات

ذلك لأن الاستهتار في الجنس قد ينتهي إلى ألوان من الاستهتار في سائر أخلاقنا وسلوكنا، فتتزعزع المسؤولية ويضعف إحساسنا بالواجبات الاجتماعية.

سن المراهقة

في فصل آخر «متاعب الشباب الجنسية» عالجت موضوع المراهقة بشيء من الإيجاز، وأنا هنا للتوسع والاستيعاب.

المراهق هو الشاب أو الفتاة بين سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة إلى سن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، فهو قبل هذه السن لا يعرف الإحساس الذي يميزه من الجنس الآخر، ثم هو بعدها يجد أن حمى المراهقة قد خفت بعض الشيء وأنه يستطيع أن يتمالك نفسه ويسوس غريزته.

وسن المراهقة هي حمى جنسية، بل أحياناً جنون جنسي، والوظأة ثقيلة عند بعض الشبان تضنيهم وترهقهم إلى حد مؤلم؛ وذلك لأن الشاب أو الفتاة ينتقلان في هذه السن من الصبا إلى الشباب، فتتمو الهورمونات الجنسية نمواً مفاجئاً، من حيث انعدام الخبرة السابقة والحيرة في مواجهة التوترات العاطفية، وأيضاً من حيث الحرمان الجنسي الذي يفرضه المجتمع المدني.

وهناك من يقول إن الفتاة أقدر على تحمل هذه الحمى من الشاب، ولكن ليس هذا مؤكداً؛ إذ قد يكون العكس هو الصحيح، ولكن يتضح من الكتاب الوافي الذي ألفه كينسي الأمريكي، وهو يعتمد على الإحصاءات، أن التوتر أخف قليلاً عند الفتاة مما هو عند الشاب.

والحرمان يؤدي إلى الوقوع في العادة السرية، وهي ملحة مصممة، ومقاومتها تكاد تكون محالاً، وهي إذا كانت معتدلة، مرة أو مرتين في الأسبوع، لا يحدث منها ضرر كبير؛ ونعني الضرر الفسيولوجي، ولكن الضرر النفسي كبير؛ لأن المراهق يهتم ويحتقر نفسه، ويعتقد أن الضرر فادح، وكل هذه الإحساسات تختم عليه فتؤذيه في أداء واجباته المدرسية أو الجامعية، وتضعف طموحه.

وإذا أفرط المراهق في العادة السرية فإنه ينطوي على نفسه، ويختلي ويعتزل الناس، ويستسلم للخواطر كأنه في حلم، ويأخذ خيال المرأة عنده مكان شخصها الحقيقي، حتى لتمر النساء أو الفتيات أمامه فلا يلتفت إليهن، ولكنه يغمس في خيالاته، وهو حين يكون في الفصل بالمدرسة يشرذ إلى هذه الخيالات، ويعجز عن حصر ذهنه في الدرس أو في التفكير الموضوعي في أي شأن آخر؛ لأن كل أفكاره تقريباً تعاوده كأنه يجترها، فهو يقاطع الواقع.

وواضح أن هذه الحال خاصة بالمتمدنين؛ لأن المتوحش لا يعرف هذه الحدود الاجتماعية التي تحد من الاتصال الجنسي عند المتمدنين، وحسبنا أن نقرأ كتاب مالينوفسكي عن اختباره في تروبرياندا، وهي إحدى الجزر التي تقع بين استراليا وآسيا، فقد أقام هناك سنوات يدرس المتوحشين، وألف كتاباً بعنوان «الحياة الجنسية بين المتوحشين».

ومن الحسن أن نقرأ هذا الكتاب، فإنه يثير في عقولنا فطنة جديدة إلى القيم الاجتماعية التي يفرضها التمدن؛ فالمجتمع المتوحش في تروبرياندا يؤمن أو يصطلح على الإيمان بأن المرأة هي أم الأطفال، وأن الرجل ليس له أي شأن بالتناسل، وإنما هو يتصل بالمرأة للسرور واللذة فقط. أما كيف تحمل المرأة فالاعتقاد العام أو الاصطلاح العام هو أن روحاً أو أرواحاً تهبط على رأسها وهي نائمة، ثم تدخل في جسمها وتستقر في الرحم فينشأ الجنين، ولذلك ينتسب الأولاد إلى أحوالهم، وهم ينظرون إلى الأب باعتباره ضيفاً لا يتصل دمه بدمائهم.

ولا بد أن هذه الحال كانت قائمة عند جميع البشر قبل التمدن، والانتساب إلى الأم والأخوال عريق عام عند القبائل القديمة.

ولكن لهذا النظام منطقته في علاقة الشباب بالفتيات؛ إذ ما دام الرجل ليس أصلاً للأنباء فإن الاتصال بين الجنسين يجب ألا تكون له أية خطورة اجتماعية، وهو كذلك في تروبرياندا بين العزب، ولكن الخيانة للأمانة الزوجية كبيرة الخطورة جداً.

وحين يصل الابن أو البنت إلى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة يتركان بيت الأم إلى مأوى العزب، ويبقيان هناك خمس أو عشر سنوات حتى يتم زواجهما، وعندئذ يخرجان من هذا المأوى إلى بيت «العائلة».

وفي مأوى العزوبة هذا يباح الاختلاط الجنسي، فالشاب أو المراهق يجد فتاة أخرى من سنه أو أكبر أو أصغر، ويألفها وينام إلى جنبها، ويتصل بها الاتصال الجنسي، وقد

يتركها أو تتركه هي إلى آخر بلا قيد أو شرط، وهذا المأوى يحوي جميع المراهقين من فتيات وشبان إلى سن العشرين أو أكثر أو أقل في القرية، وقد يبلغون العشرين أو الثلاثين. ويلاحظ مالفينوفسكي أن الفتيات لا تحمل، وهو لا يستطيع تعليل ذلك، وربما كانت عند السكان طريقة خفية للإجهاض لم يهتد إليها، أو ربما تكون كثرة اللقاء الجنسي مانعة للحمل.

وكل هذا الذي قلنا نريد منه أن نبين أن العادة السرية لا يمكن أن يعرفها هؤلاء المتوحشون؛ لأنهم قد أباحوا الاتصال الجنسي بهذا النظام، وإذن نحن نؤدي ضريبة التمدن بالقيود الجنسية التي تحدث العادة السرية.

وقد كان البغاء في الأمم المتعدنة يؤدي هذه المهمة، ولكنه ألغى. على أن المقارنة بين بيت البغي عند المتمدنين وبيت العزوبة عند المتوحشين لا تنصف المتوحشين؛ لأن هؤلاء ينظرون بعين الاحترام لبيت العزوبة إذ يعدونه مؤسسة اجتماعية، أما نحن فقد كنا نعد بيت البغاء رجساً ونجاسة.

ولكن ألا يمكن أن نستسلم للخيال قليلاً ونبحث هذا الموضوع ونبتكر فيه؟ هنا شاب وفتاة، كلاهما يتعلم في جامعة القاهرة ولا يكسب أحدهما قرشاً، ولكنهما قد تحابا، ثم فكرا في الزواج، ولكن الأبوين يمانعان ويعترضان؛ إذ هما فقيران أو غير قادرين على أن يؤسسا بيتاً جديداً له نفقاته الباهظة.

ولكن هنا يأتي الابتكار؛ يقول محمد أفندي والد الشاب لعلي أفندي والد الفتاة: لم ترفض زواج ابني بابنتك؟

فيقول علي أفندي: أرفض لأن ابنيك طالب لا يكسب قرشاً، وأنا لا أقدر أن أساعد ابنتي بقرش يزيد على ما أنفقه عليها في الجامعة.

فيقول محمد أفندي: ولكن لماذا تنفق عليها أكثر مما تنفق الآن؟ إن كل ما سوف يحدث أننا نربطهما بعقد الزواج، ثم يبقى ابني في بيتي وابنتك في بيتك، ثم يجتمعان ليلتين في الأسبوع في بيتنا أو في بيتك، ونشترط عليهما أن يراعى منع الحمل إلى أن يتمما دراسة الجامعة ويحصلوا على استقلال اقتصادي يتيح لهما تأسيس بيت جديد.

وعندئذ يجد علي أفندي والد الفتاة أن الزواج لن يكلفه قرشاً آخر غير ما يدفعه الآن لابنته وهي طالبة، فيرضى بالزواج.

وعندئذ لا نحتاج إلى البغاء، وعندئذ لا يحتاج الشاب أو الفتاة إلى العادة السرية، وعندئذ يعيش شبابنا الحياة الجنسية السوية.

ولكن إزاء الجبال القائمة من التقاليد لا أعتقد أن أحداً يرضى بهذا الحل الذي يقربنا من سكان تروبرياند دون أن نكون متوحشين، ولكني أطرح هذه الفكرة للاختمار.

لا يكاد يمضي عليّ أسبوع حتى أتسلم خطاباً من أحد الشبان يشكو التعب أو الإرهاق الذي يجده في مكافحة العادة السرية، وهو يسأل: كيف يعالج هذه العادة ويتخلص منها؟

وجوابي: لا تتخلص منها؛ إذ ما دمت معتدلاً فلا تخف.

أما إذا كنت تظن أنك انغمست فإنك تحتاج إلى العلاج، وعلامات الانغماس هي حب الاعتزال والرغبة في التوحد، والاستسلام لممارسة هذه العادة أكثر من ثماني أو عشر مرات في الأسبوع.

والطريق إلى التخلص يجب ألا يكون بمكافحتها؛ أي: الامتناع عن ممارستها؛ لأن الإرادة الجنسية هنا قوية جداً، إذ هي شهوة؛ أي: إرادة محتدة متوترة، فالمعارضة لها، فضلاً عن الجهد المضني الذي تحتاج إليه، تؤدي إلى تعقيم الشخصية وجعل الشاب عاجزاً عن أداء عمله.

وإنما الطريق إلى التخلص منها يجب أن يسير على نحو الطريق الذي أدى إليها، فالشاب يقع في العادة السرية بالتخيل؛ أي إنه يتخيل جسم المرأة وحديثها ولونها وحركاتها، فتتكون الإرادة، ثم تحد وتتوتر فتستحيل إلى شهوة لا تقاوم، فيجب على الشاب أن يتخيل خيالات أخرى حتى يصل منها إلى إرادة أخرى غير الشهوة الجنسية. وبكلمة أخرى نقول: إذا أردت أن تكون لك إرادة في موضوع ما فإنه يجب أن تتخيل هذا الموضوع؛ لأن الخيال هو الطريق إلى الإرادة.

إذا أردت أن تكون مثرياً فلا سبيل إلى ذلك إلا بأن تتخيل نفسك ثرياً؛ لك أتومبيل وعزبة وشهرة ووجاهة ... إلخ، وعندئذ تتكون الإرادة. وإنما يجب التكرار. وإذا أردت أن تكون عالماً فلا سبيل إلى ذلك إلا بأن تتخيل أنك عظيم مخترع، لك معمل، ولك مؤلفات، وجمهور يحترمك ... إلخ، وعندئذ تتكون الإرادة.

تخيل أي شيء غير المرأة وغير الموضوعات الجنسية، تخيل حتى تجد إرادة أخرى، ثم تجنب المجلات الإباحية التي ترسم لك الفخذ والبطن والعنق والصدر؛ لأنها تعطيك خيلاً تتكون لك منه إرادة جنسية تؤدي إلى العادة السرية.

ثم تجنب الاعتزال، وانتهز كل فرصة للاشتراك والاجتماع بالناس، كما يجب أن تتجنب القصص الغرامية والمناظر السينمائية التي تثير الخيال الجنسي، ولا تصدق أن الألعاب الرياضية تخفف العاطفة الجنسية، بل العكس هو الأخرى. ثم اذكر تروبرياند وسكانها المتوحشين.

ضرورة الاختلاط بين الجنسين

من أخبار لندن أن حزب العمال الذي يتولى الحكم انهزم في الانتخابات الأخيرة للمجالس البلدية، وأن بعض المعقبين قد عزا هذه الهزيمة أو بعضاً منها إلى أن حكومة العمال قد أجازت تعلم الصبيان التربية الجنسية في المدارس، وأن الآباء قد اشمأزوا من الأسلوب الصريح الذي تلقن به هذه المعارف لصبيانهم.

وليس بعيداً أن يكون المحافظون قد استغلوا نفور بعض الآباء من هذا الموضوع فبالغوا في الاتهام وأسهبوا في ذكر المساوي، وللمحافظين مزاج عام هو المحافظة على التقاليد التي ينتفعون بها في السياسة.

ولكن إذا صح أن المحافظين قد نجحوا وانتصروا برفع راية الحياء الاجتماعي فإن انتصارهم لن يدوم طويلاً؛ لأن القرن العشرين هو قرن التنوير الجنسي، وقد كان الإنجليز قبل نحو أربعين سنة يمنعون أو يحاولون منع الاستحمام المختلط عند الشواطئ، ولكننا نعرف أن السويديين؛ رجالاً ونساءً وأطفالاً ينزلون إلى البحر وهم عراة لا يسترون شيئاً من أجسامهم، وقد تنتشر هذه العادة في الأمم الأخرى.

وقد ظهر في هذا القرن أيضاً كاتبان إنجليزيان؛ أحدهما فيلسوف عميق يدعى «هافلوك إليس»، والآخر سيدة راسخة في العلوم تدعى «ماري ستوبس»، وكلاهما دعا دعوة صريحة في الشؤون الجنسية حتى منعت مؤلفاتهما إلى حين، ولكن الحكومات التي منعت عادت فأجازتها وأخذت برأيهم؛ لأنها وجدت أن المعرفة نور، وأن التستر يؤدي إلى الجهل، ولا يمكن أن ينفع الجهل أحداً.

ثم طلع علينا «فرويد» في الأربعين سنة الأخيرة فأفاض وأسهب في الشؤون الجنسية، وجعل العقيدة الجنسية بؤرة تتشعب منها ألوان النشاط البشري، وعزا الجنون والشذوذ إلى التربية السيئة التي يحصل عليها الناس عن الشؤون الجنسية، أو إلى الحرمان الجنسي

الذي يحدث أنواعاً مختلفة من الكظم تندس إلى جهازنا النفسى مكتومة معبأة، ثم تنفجر في اختلال ذهني أو عاطفي نسميه جنوناً أو شذوذاً، ولهذا أصبحت الصيحة العامة في عالم التعليم هي: تعلموا واعرفوا، بل واختبروا.

وهناك من يعتقد أن هذه الدعوة تحمل شيئاً من الإسراف؛ لأن الكظم الذي لا يتجاوز حدود الاعتدال ينفعنا؛ إذ هو طاقة محبوسة نستطيع أن نوجهها إلى ألوان من النشاط الاجتماعي والثقافي أو الديني، وهذا — كما يبدو لنا — صحيح؛ لأن الأمم التي تعودت الزواج المبكر وأسرفت في الاستهتار انحطت وانهارت.

وليس عجباً أن يكون موضوع الشئون الجنسية من الموضوعات التي يعزف الناس عن الحديث عنها؛ لأن هذا العزوف خوف كامن في نفوسنا من هذه القوة الطاغية التي ترزعزعنا أحياناً، والتي يحس كل منا أنه مهتم بها، ونحن نتجنب هذا الموضوع في حديثنا، ولكنه يعود موضوع أحلامنا في النوم أو في اليقظة حين نجد الفراغ والاسترخاء.

و«الجنس» بؤرة سيكلوجية في نفس الرجل، تحيط بها مركبات مختلفة قد ترفعه إلى السماء أو تهبط به إلى الحضيض، فهو استطلاع وشجاعة وفهم وتأنق، كما هو أحياناً عدوان وتعذيب وشذوذ، وهو كذلك بؤرة نفسية عند المرأة تشع منها مختلف الإحساسات والاتجاهات، ولكن حين تكون الزواجر والنواهي كثيرة عند المرأة — كما هي الحال في مصر — تتأثر تأثراً سلباً جداً قد ينتهي باتهامها بالبلادة والجمود؛ لأن الزجر الجنسي يؤدي إلى أن تقول المرأة أو الفتاة لنفسها: يجب أن أتراجع ولا أفكر في هذا الموضوع، أو لا أمارس هذا العمل.

وبعض ما نعزوه إلى المرأة من تخلف ذهني عن الرجل يعود إلى هذا الروح الازدجاري؛ أي إلى كثرة النواهي والزواجر التي نعالج بها هذا الموضوع أمام المرأة، فنحن ننهارها عن التفكير في موضوعات اجتماعية أو ثقافية أخرى، ثم يكون بعد هذا خوفها من الاستطلاع والدراسة، ثم تكون البلادة؛ لأن الذكاء يحتاج إلى تفكير حر ومعيشة حرة.

وفي المجتمع العلمي يجب أن يعيش الذكور مع الإناث منذ ميلادهم إلى يوم وفاتهم، لا ينفصل جنس من الآخر؛ لأن هذا هو الوضع الطبيعي الذي تصرخ به الطبيعة، والمجتمع الذي يعارض الطبيعة مجتمع فاسد، وهو لن يستطيع أن يهزمها؛ لأن الطبيعة ترد اللطمة، فيكون من الانفصال بين الجنسين تلك الشذوذات الجنسية التي شاعت في أمم شرقية عديدة، بل قد يكون الجنون.

ضرورة الاختلاط بين الجنسين

وأني أقرر موقناً بأن الشيزوفرينا، وهي أعصى الأمراض النفسية، تتفشى في مصر كثيراً جداً لهذا الانفصال بين الجنسين؛ فالشبان لا يجالسون الفتيات ولا يرافقونهن، فتمتلئ رءوسهم بهذيان جنسي، ثم يمتد الكظم، ثم يكون الانفجار بالجنون. وهناك أمارات كثيرة تدل على أن هذا الانفصال يؤذينا في نواح مختلفة؛ فإن الحرمان الذي أدى إلى الكظم يجعل حديث شبابنا جنسياً إباحياً، ونكاتنا جنسية بذيئة؛؟ وبعض مجلاتنا الأسبوعية مواخير مطبعية لعرض الأجساد التي يراها الشاب فتخفف عنده حد الكظم.

يجب أن نعمم التربية الجنسية حتى يعرف صبياننا قبل شبابنا الحقائق، ويجب أن نشجع الاختلاط بين الجنسين ويجب أن نعيش القرن العشرين.

قيمة الامتناع الجنسي

سلوكنا الجنسي في احتداده وتركزه، وعلى صغر الوقت الذي يستغرقه من حياتنا اليومية، يرمز إلى سلوكنا العام؛ فنحن أنانيون خطافون مع المرأة، أو متعاونون متمدنون، أو مهولون خائفون؛ لأننا كذلك مع سائر الناس. والسلوك الجنسي الحسن هو السلوك الحسن العام مع زملائنا ورؤسائنا وخدمنا وجميع الناس؛ ذلك لأن نشاطنا الجنسي هو جزء من نشاطنا في الحياة، حتى العيوب الجنسية السلوكية هي أيضاً جزء من عيوبنا الأخلاقية العامة.

والامتناع الجنسي هو أيضاً رمز إلى امتناع أو انكفاف أو تقلص في النشاط الحيوي العام، ويصدق هذا القول حتى عندما يكون الباعث اعتبارات أخلاقية؛ لأن هذه الاعتبارات تعم سلوكنا البشري الاجتماعي قبل أن تعم سلوكنا الجنسي الخاص. وعندما نتأمل هذا «الامتناع» الجنسي، أو هذا الزهد الاختياري، نجد أنه ليس له وجود؛ فالمتنع يظن أنه قد زهد ونسك لأنه لا يتصل بالمرأة، ولكنه في الواقع قد تعوض من هذا الامتناع ما يقوم مقامه؛ فهو يمارس العادة السرية، أو يستسلم لخيالات جنسية في يقظته، أو يحلم أحلاماً جنسية في نومه، أو يقع في شذوذ جنسي، أو ينتهي بنيوروز؛ أي: توتر نفسي يتخذ ألواناً مختلفة، ومعنى هذا أنه لم يقف نشاطه الجنسي إنما أحاله إلى ميدان آخر غير المرأة، في الواقع، وإن لم يتم له ذلك في الخيال.

وليس هناك أعزب أو عزباء إلا وهما في هذه الحال، وقد ذكر جانبه مثلاً لامرأة كانت تحاول تخفيف جسمها بالإقلال من الطعام، فكانت تقتصر في اليوم على بيضة أو بيضتين مع القليل جداً من الخبز، وقد قصت على جانبه ما لقيته في هذا الصوم أو هذا الامتناع الذي كاد يكون تاماً عن الطعام، فذكرت أنها طوال يومها كانت تتخيل ألواناً من الطعام تفكر فيها تفكيراً يكاد يكون سرياً، وكانت لهذه الخيالات لذتها، ثم كانت مع

ذلك تختلس بسكويته تخفف عنها ألم الجوع، ثم كانت أيضاً تلجأ إلى كتاب عن الطبخ تقرأ فيه وتلتذ وصف الأطعمة، وأخيراً كانت تتمرغ على أرض الغرفة كي تتخلص من ألم الجوع.

وحال هذه المرأة لا يختلف من حال الشاب الممتنع أو المحروم من الجنس الآخر؛ فثلك كانت تتخيل الطعام، وهو يتخيل المرأة، وكانت تسرق بسكويته، وهو يسرق اللذة بالعادة السرية للتخفيف، وهي كانت تقرأ كتاباً عن الطبخ، وهو يقرأ قصة غرامية أو مجلة إباحية، ثم هي كانت تتمرغ من ألم الجوع، وهو أيضاً يتمرغ على سريره من التوترات العاطفية الجنسية.

لا نستطيع أن نقول إن تلك المرأة قد امتنعت عن الطعام أو نجحت في محو الجوع، وكذلك لا نستطيع أن نقول إن هذا الشاب قد امتنع عن الجنس الآخر أو نجح في كظم شهوته الجنسية.

السؤال هنا: هل يستطيع أحد أن يعيش أعزب؟ وهل ينتفع من ذلك أم يستضر؟ إن أولئك الذين يقولون بمنفعة الامتناع يعللون هذه المنفعة بأن الممتنع يتسامى بعاطفته الجنسية، ولكن ليس هناك ما يدل على أن هذا التسامي ممكن إلا في حالات تتجاوز الحياة العادية إلى ما يشبه الفذازة أو الشذوذ؛ كما هي حال الشهداء أو القديسين مثلاً، أما أن يقال إن هناك من الأدباء والفنانين من استطاعوا أن يستغرفوا في اللذة الفنية وأن ينسوا الشهوة الجنسية، فهذا ما لا يستطيع أحد أن يقيم الحجة عليه.

ولكن ليس هناك شك في أن قليلاً من الامتناع ينفع؛ إذ هو يحدث توترًا جنسيًا قد يؤدي إلى توتر ذهني أو جسمي، ثم يؤدي هذا إلى نشاط، ولكن هذا الامتناع يجب أن يكون وقتياً لمدة معينة؛ أي: معتدلاً، وهو أدعى إلى أن يزيد الإقبال والاستمتاع الجنسيين، كما أن الإسراف والانغماس أدعى إلى أن ينقصاهما، ومعنى هذا أنه ليس هناك ما يمنع من حبس الطاقة الجنسية بعض الشيء لزيادة القوى جميعها؛ جسماً وذهناً وجنساً، وأن الانغماس رذيلة مؤذية.

والغريب أننا نعرف ما يزيد الطاقة الجنسية، ولكننا لا نعرف ما ينقصه؛ فإن الخمر تزيدها، وكذلك الرياضة البدنية المعتدلة. وهنا التباس يجب أن نجلوه، فإن بين الرياضيين من يعتقد أن الرياضة تنقص الطاقة الجنسية وتخفف عن الأعزب، ولكن الاختبار العام يدل على أن الرياضة المعتدلة تزيد هذه الطاقة؛ ولذلك نجد أن الفحول؛ أي: تلك الذكور التي تربي للفحلة، لا تنشط للتلقيح إذا كانت مربوطة، بمقدار ما تنشط

إذا كانت مطلقة تجري وتمرح. وصحيح أن الرياضة المنهكة تنقص الطاقة الجنسية، ولكن هذا الإنهاك هو للصحة العامة وليس للاشتهاء الجنسي وحده، وهذا ضرر، بل كذلك الإقلال من الطعام يؤدي إلى نقص في الشهوة الجنسية وفي نشاط الجسم العام كله. والعلاج الصادق لهذه المشكلة هو الزواج المبكر، والعائلات المتمدنة التي أخذت بالروح العصري يسهل على شبانها وفتياتها أن يتزوجوا وهم في العشرين أو حواليها؛ وذلك لأن مشكلة الزواج هي في النهاية اقتصادية، والشاب الذي يتزوج فتاة جاهلة لا تعمل ولا تكسب يضطر إلى أن يعولها فتاة فضلاً عن أطفال، ولكن الشاب المتمدن الذي يتزوج فتاة متمدنة يجد أنها قد تعلمت مثله، وأنها تستطيع أن تعيش وتكسب، بل أكثر من هذا وأهم، وهو أنها تستطيع الامتناع عن الحمل.

وفي مثل هذه الظروف يمكن الشاب والفتاة أن يتزوجا وهما في العشرين، أو قبل ذلك أو بعد ذلك، وأن يعمل كلاهما ويكسب مع إرجاء التناسل إلى ما بعد الثلاثين مثلاً. ولكن يجب ألا يتم الزواج قبل ذلك بسنين؛ لأن الشبان من الجنسين يحتاجون إلى إيداع القوة الجنسية، بل إلى توترها وحبسها بعض الأيام. واجتماع شاب وفتاة في زواج قبل العشرين يؤدي إلى إسراف وانغماس ينهكان الجسم والعقل معاً. والشاب قبل العشرين لا يكاد يطمح إلى الزواج، وإنما هو في استطلاع جنسي فقط، وليس معنى هذا أنه يستطيع حبس شهوته الجنسية إلى سن العشرين، وإنما نعني أنه لا يطلب الزواج وتكوين العائلة. وهنا نستند إلى فرويد وهو يقول:

إن الامتناع القهري بعد سن العشرين لا يخلو من الخطر، وربما أدى إلى ضرر عظيم، وقد يقال إن الإنسان ينتفع عندما يكافح هذه القوات الجنسية الدافعة بتقوية أخلاقه، وقد يكون هذا ممكناً عند بعض الأشخاص الذين توافقهم طبائهم على ذلك، ولكن مقاومة الغرائز الجنسية عند الكثرة من الناس تعد خطراً عظيماً، بل لعلها تضعف الأخلاق، ويحدث هذا في الوقت الذي يحتاج فيه الشاب إلى أن يملك جميع قواه كي يحظى بمكانة في المجتمع والحياة، والتغلب على القوة الجنسية بتحويلها والتسامي بها إلى الثقافة العالية ممكن عند الأقلية، وحتى هذا الإمكان لبعض الوقت، ولكن لا يكاد يتم هذا التغلب حين يكون الشاب في غلواء شهوته الجنسية.

وبعد هذا الذي ذكرناه عن قسرية الشهوة الجنسية، وأن الرغبة في الامتناع عن التفرّيج عنها عقيمة، بعد هذا يجب أن نقول إن هناك ظروفًا يستطاع فيها الامتناع الكلي، ولكن ليس عن إرادة مقصودة، وإنما عن حال معينة هي في الغالب عقيدة ترسخ حتى تصير عاطفة؛ كالأب يموت ابنه الوحيد فلا يقرب زوجته بعد ذلك سائر عمره، فهو هنا لم يتعمد هذا الانكفاف، وإنما هو أحس في أعماق نفسه أنه حرام عليه أن يستمتع باللذة الجنسية بعد موت ابنه، فماتت شهوته، أو هي اندغمت في هذا الحزن العظيم على ابنه، أو كالعريس يحس انقباضاً جنسياً نحو عروسه؛ لأنه يرفعها إلى مكانة وهمية من الطهارة تجعله يشمئز من الاتصال الجنسي بها؛ لأن في هذا الاتصال نجاسة يربأ بعروسه عنها، أو مثل غاندي الذي كف عن الاتصال بزوجه وهو في الرابعة والثلاثين من العمر، لا لأنه أراد ذلك، وإنما لأن هموم الدنيا التي حملها على عاتقيه قد غمرت هذه الشهوة واستوعبت كل نشاطه.

وكل هذه الأمثلة لا تتصل بما ذكره فرويد عن «الامتناع القهري» الذي يعد محالاً.

السلوك الجنسي والزواج

أخلاقنا؛ أي: اتجاهاتنا الفكرية، وكذلك القيم الاجتماعية والنفسية يغرسها فينا المجتمع منذ الطفولة، فنحن ننشأ على عادات إيجابية تحملنا على الإقدام والعمل، وعادات أخرى سلبية؛ أي: محظورات، تكفنا فلا نعمل.

ومعنى هذا أن الأخلاق عادات؛ إما للإقدام وإما للكف، وهي، لأنها غرست فينا منذ الطفولة، نحس بها كأنها طبيعية لأنها قد استحالت إلى عواطف؛ فالأوروبي يشتاقي إلى لحم الخنزير ويأكله في نهم، المسلم يشمئز منه، وكلاهما يحس كأنه يعمل بطبيعته، ولكن الحقيقة أنه يعمل بأخلاقه فقط، وزواج الأخت الذي كان يمارس عند أجدادنا قبل ستين عاماً، وكذلك زواج الضمد الذي كان يمارس عند عرب الجاهلية، إنما كان كلاهما من العادات الاجتماعية التي لا نذكرها إلا مع الاشمئزاز.

وبكلمة أخرى: إن ما نسميه في الأكثر عواطف طبيعية إنما هو عواطف اجتماعية فقط.

ولكل أمة عادات غالبية تستحيل إلى عواطف عند أفرادها، وأحياناً تتبلور هذه العواطف أو تتجمع في بؤرة في أحد الأفراد، فتؤدي إلى الجريمة أو إلى الجنون؛ كالخوف، عاطفة عامة في مجتمعنا، ولكنه يتبلور عند أحدنا لظروف خاصة فيؤدي إلى القلق وربما إلى الجنون، وكالاقتناء، عاطفة عامة بيننا جميعاً، ولكنه يتبلور في أحد الأشخاص فيؤدي إلى الجريمة بالسرقة أو التزوير أو نحوهما.

ولذلك جرائم كل أمة، وكذلك نوع جنونها، يسيران مع أخلاقها؛ لأنهما احتداد أو تبلور في العاطفة التي ركبها المجتمع في نفوسنا، وكلنا مجرمون في اعتدال، وكلنا مجانين في اعتدال، فإذا غلونا وتطرفنا فطريقنا إلى السجن أو إلى المارستان، ونحن نلتذ أحياناً في

أحلامنا بالجريمة، وأحياناً في أحلامنا نسلك سلوك المجانين؛ ولذلك قال أفلاطون على ما أذكر: إن ما يحلم به العقلاء يفعله المجانين.

ولكننا لاختلاف الظروف نختلف في الأخلاق، وليس الاختلاف أصيلاً؛ لأننا ما دما نعيش في مجتمع واحد فإن الأخلاق العامة واحدة، ولكن منا من يتجه نحو العدوان أو الاقتناء أو الغيرة أو التراخي أو التسامح أو الخوف، ويجري كل هذا في حدود يرضاهما المجتمع؛ لأننا نعتدل ولا نغلو في ممارستها.

وفي مجتمعنا الحاضر نجد أن أعظم ما يفسد حياتنا هو الخوف الذي يؤدي إلى القلق، وربما إلى الجنون، وله مركبات كثيرة أخرى.

ويلى الخوف الاقتناء، وقد يؤدي إلى النهم في الطعام، وأيضاً إلى السرقة والتزوير، وله مركبات أخرى كثيرة.

والخوف والاقتناء عاطفتان اجتماعيتان، ولكن أثرهما كبير في العلاقات الجنسية وفي المعيشة الزوجية.

فالشذوذ الجنسي — مثلاً — يدل على القوة الشاذة في عاطفة الاقتناء بالخطف من الغير والإضرار به، بلا تعاون أو حب أو احترام، والهرولة أو التعجل في الاتصال الجنسي تدل على القوة الشاذة في عاطفة الخوف؛ لأننا نفر ونجري، فإذا رسخ الخوف في نفوسنا أصبحنا لا نؤدي عملاً إلا مع الهرولة والتعجل.

والأخلاق الاجتماعية تتبلور في الحياة الجنسية أو الزوجية؛ لأن العلاقة الجنسية تصل دوماً إلى الحدة والغلو، وهنا نرسو على الأسس العاطفية التي نشأنا عليها، فنحن خطافون للذة الجنسية إذا كنا قد نشأنا على الاقتناء بالخطف، ونحن متعجلون في اللذة الجنسية إذا كنا قد نشأنا الخوف.

وإذا كان مركز المرأة منحطاً في المجتمع ليس لها حقوق، وإذا كان موضوعها لا يثير غير النكته، فإن الاقتراب الجنسي منها يضعها في مكانة منحلة بعيدة عن التكافؤ، وعندئذ يجري الاتصال الجنسي بلا تعاون، ويجري وفق النظر الاجتماعي للمرأة. بعد هذه المقدمة نتحدث عن الزواج، ونسترشد بسيكولوجية المستقبل لأدلر، وليس بسيكولوجية الماضي لفرويد.

ويتحدث أدلر عن عادة ريفية في بعض القرى الألمانية، وهو يجد فيها رمزاً حسناً للحياة الزوجية، ذلك أن الخطيبين حين يزمعان الزواج يعمدان قبيل العرس إلى نشر جذع شجرة، والمنشار لا يمكنه أن ينشر إلا إذا توافر التعاون بينهما، أما إذا تعاندا فلن ينشر الجذع، ولن يكون الزواج.

فالزواج تعاون وليس تعانداً، ولذلك يجب أن يسود التعاون الحياة الزوجية. ولكن الأثاني الاقتنائي المدلل الذي نشأ على أن يقول «أنا وحدي» عندما يقبل على الزواج يسأل نفسه: ماذا أكسب منه.

أما المتعاون الذي درب نفسه على احترام الناس، وعامل وعومل بالاحترام، فيسأل نفسه عندما يقبل على الزواج: ماذا أقدم لهذا الزواج، وكيف أريده خيراً؟ والحياة الزوجية تقتضي السلوك الاجتماعي الحسن، والاتصال الجنسي بين الزوجين هو بؤرة تبرز صفاتنا الاجتماعية الغالبة، وأسوأ شيء في الزواج أن ينظر أحد الزوجين إليه باعتباره الفرصة التي تتيح له تحقيق لذاته ومسراته هو وحده. ولذلك يرى أدلر بحق أننا نسعد بالزواج إذا كان كل منا قد عاش في عائلة سعيدة؛ لأن أسلوب الحياة الذي أخذنا به من هذه العائلة سينتقل معنا إلى الحياة الزوجية، فنسعد كما سعد أبوانا، والعكس يؤدي إلى العكس.

وهنا يلتفت أدلر إلى حياة العزوبة ويكاد يمازحنا ولكن مزاحه على أساس متين من الحق، فهو يقول: إن الزواج هو الاتفاق على أن يعيش اثنان معاً، وهما يعيشان كذلك بلا مرانة أو تدريب سابق، ولو أن المجتمع الذي نعيش فيه كان يعين العيش للناس اثنين، اثنين، لكان لنا من هذه المرانة ما نستعد به للزواج، ثم هو في هذا الاتجاه التفكير ينقص بالرقص؛ لأنه مرانة حسنة ابتدائية على التعاون والملاطفة وال جذب والرقعة والمجاملة بين اثنين، فهو يهيئ للزواج.

وأخيراً ينصح لنا بأن الزواج بداية وليس نهاية؛ أي يجب على الزوجين أن يدرسا طرق التعاون بينهما، وأن يعملوا لريقيهما المشترك، وأن يسيرا في بناء البيت مادياً وروحياً. وقد ضحكت عندما قرأت له عن الرجل أو المرأة التي تتزوج من أجل المال، فقد رفض بحث هذا الموضوع وقال: إن الحياة أسمى من أن نجعلها نكتة. أجل: إن الزواج من أجل المال هو نكتة، ولكنها ليست النكتة التي تضحك فقط، وإنما هي النكتة التي تدعونا إلى البصق.

كيف تختار الزوجة وتسوسها؟

هناك اعتبارات بشرية حيوية، واعتبارات أخرى اجتماعية عرفية، ونحن نترجح في سلوكنا بينهما في كل ما يتصل بنشاطنا ومطمعنا وأهدافنا، وموقفنا من الزواج هو على الدوام موقف التردد بين هاتين الكفتين.

فالقيم البشرية الحيوية في الزواج هي الصحة والذكاء والجمال؛ أي إن هذه القيم أصلية في الرجل أو المرأة، وهي تورث في الأبناء والأحفاد، وليس اختيارها سهلاً؛ لأننا عندما نختار الفتاة السليمة أو الذكية أو الجميلة يجب ألا نقنع بحصولها وحدها على هذه الصفات، بل يجب أن نعرف عائلتها من ناحيتي الأب والأم، وهل تحتوي هذه العائلة على مرض وراثي، أو نقص في الذكاء، أو حتى دمامة جسيمة؛ لأن هذه الفتاة قد تكمن فيها هذه الصفات بحيث تعقب أطفالاً لا يردون إليها، وإنما يردون إلى عائلتها ويبرزون نقائصها.

وهذه القيم البشرية هي أعظم ما يجب أن نلتفت إليه وقت الزواج، بل هي في نظري كل شيء، ويمكن إهمال سائر الميزات الأخرى عند المقارنة بها.

أما القيم العرفية الاجتماعية فكلنا يعرفها، وهي — للأسف — مقدمة على القيم البشرية الحيوية، فالشاب يطلب الفتاة الثرية أو التي تنتسب إلى عائلة وجبهة، بحيث يستطيع أن يرتفع اجتماعياً بالإصهار إليها، أو هو حتى يطلب الفتاة المتعلمة.

وكل هذه اعتبارات اجتماعية لا أنكر قيمتها، ولكن عند المقارنة يجب أن نفضل عليها الذكاء والصحة والجمال؛ لأن هذه جميعها تورث في الأقباب، أما الصفات الاجتماعية فلا تورث.

والزواج هو في النهاية اشتراك جنسي غايته التناسل، ونعني هنا غايته الأولى، فيجب على الشاب أن يفكر كثيراً في هذه الميزات الأصلية الطبيعية في الفتاة، كما يجب على الفتاة

أن تفكر فيها أيضاً عندما تختار الشاب، فإذا أضيفت إلى ذلك ميزات اجتماعية فنعماً بها، وإلا فالميزات الطبيعية وحدها تكفي وتفضل.

ولا عبرة بأن تكون الفتاة متعلمة أو ثرية أو من عائلة وجيبة إذا كان لها شقيق أبله أو أم مغللة، أو أن العائلة تحمل عاهة أو شوهة وراثية؛ لأن ليس هناك ما يكفل إلا تعقب هذه الفتاة أبناء يحملون هذه النقائص، وهنا الكارثة، بل المأساة التي لا تعالج. كن بشرياً عندما تقدم على الزواج، واطلب الميزات العنصرية الأصلية في زوجتك، ووسيلة ذلك بعد أن تسأل عن الفتاة نفسها أن تسأل عن أبويها وأخوالها وأعمامها؛ وذلك لأن الولد ينزع إلى عائلة أبيه أو أمه أحياناً، وقد رأيت هذا الأسبوع صبيّاً نزع إلى والدة جده لأمه، وكانت الصفة التي نزع إليها طول القامة؛ إذ هو يزيد على أخوته نحو ربع متر، ولم تظهر هذه الصفة في العائلة منذ خمسين سنة، والحكم في الصفات الحسنة أو السيئة هو كالحكم في هذه الصفة.

فإذا استوفينا في هذه الميزات البشرية فلا بأس أن ننظر إلى الميزات الاجتماعية، وأهمها هو التكافؤ الاجتماعي، بحيث نختار الفتاة التي ننتمي إليها، فلا تكون أعلى أو أدنى منا؛ وذلك كي نكفل التماثل في العادات والأذواق، فلا يجوز للشاب الذي لم يستعمل طوال حياته سوى الترام أن يتزوج فتاة من عائلة ثرية لم تستعمل سوى «الأتومبيل»، ولا يجوز للشاب المتعلم أن يتزوج فتاة أمية. وكذلك الشأن في الأخلاق؛ إذ يجب أن يكون هناك أيضاً تماثل، وخير ما يكفل للشاب أو الفتاة الوقوف على أخلاق الآخر هو إطالة الخطبة، وصحيح أن أيام الخطبة هي أيام المداراة والتظاهر بأسمى الأخلاق، ولكن إطالتها توضح الحقائق إلى حد بعيد.

وعندما نقدم على الزواج نجد أننا بين عاملين؛ أحدهما العاطفة المادية المتوثبة، وهي تنبع من الحيوان الذي في كل منا، وأحياناً تطغى علينا وتعمينا، وقد يكون مرجعها ثديين رخيمين، أو عينين حوراوين، أو لثغة ساحرة، أو ساقين قد أحسنت الطبيعة هندستهما. وفي النهاية نجد أن مرجع استجمالنا لهذه الصفات أن هذه الفتاة تشبه أمنا التي رضعنا ثديها قبل ٢٥ أو ٣٠ سنة، فيجب أن نحذر.

أما العامل الثاني، فهو العقل؛ أي: الوجدان الذي يتخلص من العاطفة أو يكاد، وعلامته أن نسأل: كيف تكون هذه الفتاة بعد عشر سنوات، ثم بعد عشرين سنة؟ وكيف يكون أبنائي منها؟ وكيف نتحدث ونشترك في الحياة بعد ثلاثين سنة؟

العقل هو الإنسان الذي يسيطر على الحيوان في طبيعتنا، فيجب أن نجعل له حق الاختيار دون العاطفة التي تنبع من العناصر الحيوانية القديمة في هذه الطبيعة.

كيف تختار الزوجة وتسوسها؟

هذا من حيث الاختيار، أما من حيث السلوك، أو كيف نسوس الزوجة، فإن ما يقال هنا هو إننا ما دمنا قد أحسننا الاختيار فإن الحياة الزوجية تسير سيرها الطبيعي، ولكن مع ذلك نحتاج إلى بعض الملاحظات.

وأهم هذه الملاحظات أن نجعل الزواج بداية وليس نهاية، فإن القصص والدرامات المسرحية والسينمائية قد أحدثت أسلوباً وعينت توجيهاً، وليس هدفها بداية الحياة؛ لأننا نرى القصة تدور حول الحب وكفاح المحبين في التغلب على العقبات ثم تنتهي بالزواج، وكأن كل شيء قد تم.

مع أن قصة الحياة يجب أن تكون قصة الزواج أكثر مما تكون قصة العزوبة التي تسبقه، أو قصة الكفاح الذي يؤدي إليه؛ أي إننا في حاجة إلى قصص تبدأ بإتمام الزواج، ثم تصف كيف استطاع الزوجان أن يعيشا خمسين سنة، وكيف عمل كل منهما لترقية الآخر وإنجاح شخصيته، وكيف استطاعا تربية الأطفال حتى صار الطفل رجلاً، وكيف كان بيتهما مضيقة متمدنة للأصدقاء، بل متحفاً جميلاً بما فيه من كتب وطرف وأثاث. يجب أن تبدأ القصة من ليلة الزفاف ولا تنتهي بهذه الليلة كما هو الشأن الآن، وخير ما يعمل لبقاء الزواج هو نموه؛ أي: ارتقاؤه، نعني ارتقاء الزوجين المشترك بالثراء والثقافة والوجاهة والخدمة، وما دام هناك إحساس متزايد بالارتقاء؛ أي: بالنمو، فهناك لذة العيش، أما حيث يكون الركود فلا يكون سوى السأم الذي يخفف منه الزوجان بأكل اللب والتضخم اللحمي والتجمد الذهني، وهذا هو الموت الذي لا غش فيه.

وخير ما يبقي لنا نحافة الجسم ويقظة الذهن ولذة العيش إنما هو الإحساس والعمل لارتقاء أنفسنا وارتقاء مجتمعنا، بل إننا حين نخدم المجتمع ونعمل لارتقاؤه ننبه بهذه الخدمة أسمى الكفاءات في أنفسنا، فنرتقي ونعيش الحياة الهادفة، ونحس السعادة.

ليلة العرس

قلما يتزعزع الشاب ويحس هواناً يعم شخصيته ويخيم على جوه السيكلوجي مثلما يتزعزع عندما يحس عجزاً جنسياً، ويزيد هذا التزعزع إذا كان هذا العجز يقع ليلة العرس، بل يحدث كثيراً أن يكون وقع الصدمة المفاجئة عظيماً بحيث لا يستطيع الشاب مواجهتها، ولذلك قد يفر ويغادر عروسه، أو قد ينتحر.

ولكل شاب كرامة جنسية، أو إحساس عاطفي بالرجولة، فإذا جرحت هذه الكرامة بالعجز المفاجئ فإن الجو السيكلوجي كله يتغير، ويعود الشاب وهو يتساءل عن قيمة الحياة وعن مكانته الاجتماعية، وهو ينظر عندئذ بعين التوجس إلى وسطه ومستقبله.

وما دامت ليست هناك علة جسيمة لهذا العجز فإن مرجعه يجب أن يكون نفسياً؛ أي: حالاً نفسية معينة قد أدت إليه.

فقد يحدث — مثلاً — أيام الخطبة أن يتردد الشاب في الزواج، وكأنه يعتقد أن الإقدام على هذه الخطوة يحتاج إلى زيادة في التبصر، أو أن خطيبته ليست هي الفتاة المثلى من الناحية الاجتماعية أو الثرائية، وهذا التردد أو الشك؛ أي: «أتزوج أم لا أتزوج»؟ يحدث عجزاً جنسياً سرعان ما يزول إذا زال هذا الشك أو التردد، وخطورة هذا العجز أنه يحدث أيام الخطبة حيث الفرصة قائمة، إذ قد يؤدي إلى أن يترك الشاب خطيبته.

وأحياناً يحدث العجز ليلة العرس، وتقع هذه الحال كثيراً حيث يكون الانفصال بين الجنسين قائماً، كما في مصر؛ فإن الشاب يتعرف إلى خطيبته ولكنه يبقى منفصلاً منها بقوة العرف الاجتماعي فلا يألفها، ويبقى بينه وبينها حاجز من الحياء أو الاحتشام؛ إذ هو لا يقاعدها إلا بحضور والديها مثلاً، فإذا كانت ليلة العرس بقي هذا الحاجز قائماً، وقد يؤدي في حالات قليلة إلى العجز. والعلاج هنا واضح، وهو أن يكون بين الخطيبين شيء من الألفة أيام الخطبة.

وهناك ما يسمى «نيوروز الترقب»؛ أي تعيين الميعاد وترقبه في ليلة العرس، وهو يحدث خوفاً يؤدي إلى العجز، وهذه الحال أقرب الأشياء إلى حال الطالب الذي يتربح الامتحان ويخشاه ثم يسيء الإجابة لهذه الخشية، وإذا كانت هناك ألفة سابقة أيام الخطبة فإن هذا العجز يكون بعيد الوقوع.

وإذا لم يكن هناك مانع من تناول كأس من الخمر فإن هذين الاحتمالين للعجز، من الاحتشام السابق أيام الخطبة ومن خشية الترقب، يزولان.

ولكن هناك حالاً أخرى هي وليدة الثقافة الدينية أو الفنية، ذلك أن الشاب قد يحب فتاة ثم يغشى شخصيتها بالسمو، كأنها الفتاة المثلى التي لم يخلق مثلها، والتي حوت الجمال كله، وهي — بالطبع — جميلة، أو على شيء من الجمال الفني الذي ربما يقارب ما يرسم من الصور؛ وخاصة الدينية، وفي وسط كالوسط الذي نشأنا فيه حيث نسمي الأعضاء التناسلية «عورة»، ونعد الاتصال الجنسي نجاسة يجب أن نتطهر منها، يحس الشاب عجزاً نحو خطيبته؛ لأنه يربأ بها عن هذه النجاسة، ويرفعها إلى مستوى فني، ويناقض الاتصال الجنسي ويمنعه، ويعزو فرويد هذه الحال إلى «مركب أوديب»، وهو أن الشاب ينظر إلى هذه الفتاة كما لو كانت في مكان أمه، فهو يحس أنه آثم في حبه لها، ولذلك يمتنع عن الاقتراب منها؛ وخاصة إذا كان قد مارس الاتصال الجنسي مع البغايا المتهتكات.

وسواء أكان مرجع العلة ما يقوله فرويد أو ما نعتقده نحن من الترفع الفني، فإن العجز يقع عندما تكون الفتاة جميلة عليها مسحة من القداسة؛ لأن الحب هنا يتغلب على الشهوة، والحنان يأخذ مكان العدوان.

وذلك لأن الاتصال الجنسي هو في صميمه عدوان.

والعلاج هنا هو تعطيل الوجدان بعض الشيء، وكأس من الخمر تكفي لهذا؛ لأن الشاب ينتقل من موقف التقديس لخطيبته إلى موقف طبيعي يغريه بالاتصال، بالعدوان الجنسي.

وإلى هنا نترك ليلة العرس وننتقل إلى ذلك العجز الذي يحدث في سني الزواج، فقد يعيش الزوجان نحو عشر سنوات وهما في حال سوية، ثم ينتهي الزوج إلى النفور والجمود، وهناك أسباب كثيرة لهذه الحال نذكر بعضها:

وأول ذلك أن تكون الزوجة منافرة مغاضبة، بحيث يتكرر موقفها هذا أو يكاد يدوم، وبحيث يحس الزوج أنه هدف للاحتقار والسباب منها، فهو— عندئذ — يشمئز

من الاتصال بها وكأنه يعاقبها، وقد يجنح إلى التعرف إلى امرأة أخرى يجد فيها ما يشبعه.

وسبب آخر لجمود الزوج الذي قد يؤدي إلى عجز جنسي تام أو غير تام، وهو رثاثة الزوجة وشعثها؛ إذ هي لا تتزين أمام زوجها، وضرورات البيت من طبخ وغسل وتنظيف تمتنها، فتبدو رثة الملابس مشعثة الشعر فينفر الزوج منها، بل يكرهها لهذه الرثاثة؛ وخاصة لأنه لا يرى النساء من طبقته إلا حين يكن متزينات بل مبهرجات، وهذه حال تستطيع الزوجة أن تعالجها بنفسها، وأن توفق بين ضرورات الخدمة المنزلية وبين مظهرها الجنسي.

والنوم في غرفة واحدة يؤدي أحياناً إلى نفور أو ضعف جنسي؛ وذلك لأن الألفة الزائدة بين الزوجين حين يرى كل منهما الآخر وهو ينزع ملابسه، أو وهو في مبادل بعيدة عن التأنق، هذه الألفة تضعف القوة الجنسية بينهما؛ وخاصة إذا كانت الزوجة قد تعودت تزيين وجهها وحاجبيها، فإنها في الصباح قبل التزين تثير في زوجها الاشمئزاز.

ولذلك يحسن بكل من الزوجين أن ينام في غرفة على حدة إذا كان هذا مستطاعاً، فإذا لم يكن فليحذر كل منهما التبذل والرثاثة والشعث في ملابسه ومظهره وسلوكه ولغته، فقد يشمئز أحد الزوجين من الآخر لأنه يحمل في فمه رائحة الثوم أو البصل، أو لأن الألفة قد حملته على ألا يبالي السلوك المرحاضي في غرفة نومه، وهذه الحيوانية جديرة بأن تنتلم منها شباة الشهوة، وأن تؤدي إلى الجمود الجنسي.

وكثير من الأزواج عندما يحس ضعفاً أو عجزاً جنسياً يعمد، على سبيل التعويض لكرامته المجروحة، إلى القسوة، فيضرب زوجته مثلاً. ومعنى الضرب هنا أن ها هنا رجولة تقوم بالعدوان مقام الاتصال الجنسي، وهذا — بالطبع — غير مضاعفات نفسية أخرى؛ كالتردد والشك والغم والإحساس المؤلم بالهزيمة، ولها جميعها آثارها السيئة في السلوك الاجتماعي وفي تحصيل الرزق؛ لأن الجو النفسي كله تغمره — عندئذ — شكوك واغتمامات، وقد يغامر الزوج بمخاطرات كي يعيد إلى نفسه الثقة والكرامة، فقد يضرب زوجته — كما ذكرنا — أو هو يصخب في البيت ويؤكد رياسته، أو هو قد يخرج وينشد شذوذاً جنسياً.

والرجال يتفاوتون في الرجوع النفسية التي تؤدي إليها الحياة الزوجية، فالرجل الذي نشأ على مواجهة الحقائق ومعالجتها بالشجاعة لا يخشى ليلة العرس، وهو قادر على أن يتخطى العقبات التي تصدم غيره من أولئك الذين أذلتهم تربية الأبوين القاسيين فاعتادوا الخوف وأصبح الترقب عندهم دفاعاً نفسياً مسرفاً.

وخير ما يجعل الحياة الزوجية سعيدة هو الاتصال الدائم بين الجنسين قبل الزواج، الاتصال من المهد إلى اللحد طوال العمر، حتى تأخذ الحقائق مكان الأحلام، وحتى لا يفاجأ الشاب بالفتاة كأنها حيوان غريب لم يألفه من قبل.

ويجب أيضاً أن نربي جميع أطفالنا على الشجاعة، بل نعودهم الاقتحام ومعالجة الصعوبات وتخطي العقبات، ونجعل الانتصار عادتهم. والانتصار يمكن أن يكون عادة، وهم عندما ينشئون شجعاناً يستطيعون مجابهة الحقائق ومحاولة صعوباتها، فلا ينتحر أحد عند الهزيمة، ولا يجمد عند الصعوبة، بل يحاول في استبشار وتفاؤل ويكرر المحاولة.

الحب حنان والشهوة عدوان

اشتهاء الجنس الآخر قريب الشبه جدًا من الجوع إلى الطعام؛ إذ هو ينبعث بعاطفة العدوان والامتلاك والخطف، وحين نتأمل الذكر من الحيوان وهو يحتوي الأنثى وقت التلاقح، بل قبيل ذلك في اللحظات السابقة، نجد علامات الأكل والاقتران، إذ هو يعرضها، ثم هو في هذه اللحظات يكون على استعداد للبطش بغريمه إذا تقدم لأنثاه، فهو مشبوب الإحساس للعدوان والأكل.

وكثيراً ما تتغلب عاطفة العدوان على عاطفة التلاقح في الذكر؛ (أي الشهوة الجنسية)، فهو أحياناً يتقدم إلى الأنثى وكأنه يريد أن يأكلها بدلاً من أن يلحقها، وكثيراً ما يحدث في حدائق الحيوان أن يعتمد الذكر الذي كان مفصلاً من الأنثى في قفص آخر إلى تمزيقها وقتلها عندما يراد إتمام التلاقح بينهما؛ إذ هو حين يراها تنبث فيه عاطفة العدوان والأكل والاقتران والخطف، كما تنبث أيضاً العاطفة الجنسية، ثم يختلط عليه الإحساس، فإذا لم يلحقها مزقها وحاول أن يأكلها.

والأكل عدوان واقتران، بل هو قتل، ولذلك كانت الكلمة التي تعبر عند الفراعنة عن معنى أكل ومعنى قتل واحدة، وظني أنها كذلك في اللغة العربية، (قتل = أتل، أكل = أتل).

ذلك لأن الحيوان البري يقتل قبل أن يأكل، فالعدوان والجوع يشتبكان في نفسه، وكذلك الحال في الاشتهاء، فإن الذكر يشتهي الجنس الآخر؛ أي: يجوع إليه، والجوع يثير في نفسه العدوان. ومما يزيد هذا العدوان أن يكون له غريم يزاحمه على الأنثى، فإذا احتوى الأنثى عضها وقبض عليها وكأنه يأكل، والتقبيل عند البشر هو صورة مهذبة من العض، بل العض (الأكل) لا يزال باقياً في التلاقح البشري.

وأحياناً يزيد هذا الاتجاه العدواني الاقتنائي بين البشر؛ إذ كثيراً ما نسمع عن رجل يعذب المرأة ويقرصها ويععضها، وقد يضربها وقت الاشتهااء الجنسي، وهذه هي «السادية» التي تبلغ أحياناً حد الجنون أو حد الإجرام؛ فإن الاغتصاب هو عدوان جنسي. هذه هي الشهوة الجنسية كما هي عارية، ومن الخطأ، بل الخطر، أن يتزوج أحد الشبان فتاة لأنه يشتهيها؛ إذ يجب أن يحبها، ولكن الحب يناقض الشهوة.

الحب حنان والشهوة عدوان، وأحياناً يطغى الحب فتزول الشهوة تماماً، وكثيراً ما يحدث هذا للشبان، فإن الشاب قد يعرف فتاة تمتاز بجمال رائع، وفيها رقة ووداعة، وفي الأغلب تشبه أمه قبل عشرين أو ثلاثين سنة حين كان يرضع ثديها، وحين كان لا يحب في الدنيا أحداً سواها، ثم يحس أن الشهوة عدوان، وكذلك الثقافة الشرقية التي نشأ فيها تحمله على الاعتقاد بأن الاتصال الجنسي نجاسة، فهو ينتهي إلى أن يرفع هذه الفتاة عن المستوى الحيواني، فيكف إحساسه العدواني نحوها، وأيضاً يحيلها في ذهنه إلى شخصية «طاهرة» يجب أن تكون بعيدة عن النجاسة، والاتصال الجنسي نجاسة، فهو إذن يكف نفسه، من حيث لا يدري، عن هذا الإحساس الجنسي النجس، ثم ينتهي بالعجز عن الاتصال بها.

وأسوأ ما في هذه المركبات أنها تتبلور في الليلة الأولى من الزواج، فيجد الشاب نفسه أنه في الذروة من الحب، وفي الحضيض من الشهوة، ويعتقد أن زواجه فاشل، وقد ينتحر لهذا السبب.

والعلاج سهل، بل أسهل من السهل، فإن كأساً أو كأسين من الخمر تعيدان إليه حيوانيته وعدوانه وشهوته.

وليست الشهوة مصدر الحب الذي يحسه الشاب نحو خطيبته، وإنما هو ثمرة الثقافة من ناحية كما هو ثمرة حبه لأمه وإحساسه نحوها من ناحية أخرى، إحساس التعلق والطهر والحنان والخدمة والرفقة، ونحن ننقل هذا الإحساس نحو الأم إلى زوجتنا، ولكن إذا طغى هذا الإحساس قطع الشهوة، والزواج الأمثل هو الذي يجمع بين الشهوة والحب.

والشهوة تشتعل وتنطفئ، وهي تتردد «كالحمي الراجعة»، ولكن الحب دائم، فهو الذي يربط الزوجين ويسمو بهما إلى المستوى الثقافي بحيث يحسان أنهما شريكان في الآمال والعادات الاجتماعية، والاهتمام بالبيت وبالأطفال.

وكثيراً ما يتغلب الحب على الشهوة، دون أن يقتلها، بحيث يستحيل الإحساس الجنسي عند الزوجين إلى حنان حتى وقت التلاقح، ومعنى هذا أن الشهوة قد دربت وهذبت حتى تخلصت مما كان فيها من أكل ونهم واقتناء.

ويجب أن يغمر الزواج الحب أكثر مما تغمره الشهوة، بل يجب أن تربي الشهوة على أسلوب الحب؛ أي: الحب المثقف بالتعاون والحنان والاشترك في التفكير والآمال، الحب الدائم الذي لا يجيء ويروح في تشنجات وتوترات سرعان ما تنفرج، ثم يكون الانطفاء، بل أحياناً الاشمئزاز.

وهذا هو ما يقع أحياناً في الزواج، فإننا في العادة ننجذب إلى الفتاة ونخطبها بقوة الاشتهااء الجنسي فقط، فإذا طالت مدة الخطبة غمرنا حنان الحب، فإذا تزوجنا ساد الحب على الشهوة، وتعود عندئذ علاقتنا بالزوجة أشبه بعلاقتنا بالأم، وذلك لأن المعاشرة تنير في نفس الزوجين ألواناً من العطف والحنان والاهتمام تجعل الشهوة في المكان الثاني.

لكل منا مائلته

كلنا يزعم أنه رجل حقائق يعيش في الواقع، ولكن ليس فينا عند التأمل واحد لا يخلط الواقع بالخيال والحقائق بالأحلام.

وهذا حسن؛ لأننا بالأحلام نبني الحقائق، وبالخيال نتقدم إلى الواقع، وليست الخيالات والأحلام في النهاية سوى هذا الاختمار الذي يحتاج إليه الذهن حين يبني في الهواء ويغدو عاطفة الطموح أو الرقي أو الظفر في الحياة، بما يجسم له النجاح ويصور له المستقبل بالصورة التي تحث الرغبة وتدفع الإرادة إلى العمل، ثم يكون من هذا كله الواقع الذي نعيش به. وأحلامنا وخیالاتنا وأمانينا تجرى عادة فيما نسميه الكامنة؛ أي: العقل الكامن، ولكنها ترتفع إلى الوجدان أو تمسه أو تختلط به، فندري ما نفع، ونعتمد إلى غاية خيالية نجد لها ونسدد إليها إرادتنا حتى تتحقق.

ونحن جميعًا نعيش في مجتمعات مختلفة، وإذا قلنا إن المجتمع المصرى العام يحوطننا أو يسودنا فليس معنى ذلك أننا جميعًا ننشأ ولنا أهداف متماثلة؛ لأن هذا المجتمع المصرى العام يتألف من مجتمعات صغيرة خاصة، وكل منها يختلف عن الآخر. ومع أن لكل منا حياة وجودية؛ أي: حياتنا الوجدانية التي نعيش ونعمل ونكسب بها، فإن لكل منا أيضًا حياة خيالية يتخيل فيها كل منا نفسه على غير الواقع، وهو لا يخترع هذه الحياة الخيالية وإنما هو ينقلها من شخص بارز في مجتمعه الخاص هذا، وقد يكون هذا الشخص من الأحياء أو من الموتى.

ومعنى هذا أن لكل منا مائلته التي يرسمها لنفسه، فتمثل في مخيلته على دراية أو على غير دراية منه، أو بين هاتين الحالين؛ فالخادم — مثلًا — قد يعيش في الواقع وهو يؤدي عمله كل يوم في أمانة وجد، ولكنه يتخيل نفسه يومًا في المستقبل — مثلًا — وهو تاجر له متجره وله بيته وعائلته.

والتلميذ الذي يقرأ قصة نابليون يحلم كثيراً، وهذه الشخصية القوية تمثل أمامه فيتخيل نفسه قائداً عظيماً، وهو يندفع إلى جمع الكتب والصور عن نابليون، بل هو يدرس التاريخ العام بحافز من نابليون، وهو عندما تحدّثه لا يصرح بأنه يريد أن يكون نابليون، وقد يكون صادقاً؛ لأن هذه النية كامنة وليست صريحة، ولكن هذه المائلة تمثل في ذهنه وتحركه إلى دراسات مختلفة، وهو في النهاية عندما يحين التحاقه بالجامعة يجد إغراء عظيماً في الكلية الحربية، وهناك شاب آخر لا يزيد مرتبه في إحدى المزارع على عشرين جنيهاً، ولكن عندما تستمع إلى حديثه تجد أنه يعرف التفاصيل الدقيقة عن ثروة عبود باشا أو كوتسيكا أو البدراوي باشا، وهذا يدل على أنه قد نصب لنفسه مائلة، وأنه يتخيل الثراء، وهو ينبعث إلى النشاط بهذا الخيال، وليس بعيداً أن يترك وظيفته المتواضعة ويندفع في مغامرة مالية بقوة هذه المائلة فيضيع كل ما جمعه، ولكن أيضاً ليس بعيداً أن ينجح في مثل هذه المغامرة، والأغلب أنه ينجح لأنه درس هذا الموضوع في خياله.

ونحن في مجتمعاتنا المختلفة هذه يعين كل فرد منا نفسه مائلة يتجه نحو تحقيقها، ويعتقد أنه سوف يكونها، وهذه المائلات أو الموائل تتجاوز عدداً محدوداً؛ فأحدنا يريد أن يكون ثرياً، فمائلته هنا عبود باشا، وآخر يريد أن يكون أديباً فمائلته هنا قد يكون طه حسين، وآخر يريد أن يكون سياسياً، فهو ينشد الخطابة ويدرس الصحف وينضم إلى الأحزاب ويسأل ويستطلع، وقد تكون مائلته سعد زغلول، أو تشرشل، وآخر يريد أن يكون عالماً مخترعاً فهو يرسم مائلته بحيث تتلاءم مع حياة أديسون ... إلخ.

وقولنا إنه «يريد» ليس صحيحاً؛ لأن الإرادة هنا تعني الوجدان؛ أي إنه يدري ما يفعل، ولكن هذه الخيالات تتسلل إلينا كأنها أحلام، فلا ندري بها إلا قليلاً، ولكننا مع ذلك نندفع بها إلى النشاط والطموح، وهي تعين لنا أهدافنا في الحياة وتوجه سلوكنا. وأحلام اليقظة التي نستسلم لها وقت الفتور أو الغفوة تبين لكل منا مائلته؛ فقد نرتاح بعد الغداء ويغمرنا الكسل والتأؤب، فيندفع أحدنا، وهو رجل متواضع في الواقع، إلى خيالات باهظة مسرفة كأنه قائد عظيم أو عالم أو ثري يملك يختاً خاصاً، ويجول به حول العالم ... إلخ.

وخلاصة القول أن حياة الخيال تختلف كثيراً عن حياة الواقع، وهي تقوم على أن لكل فرد منا مائلته التي تكونت في مخيلته منذ كان طفلاً، وهي تحيا معه طوال عمره، وهي قد تمس الواقع أو لا تمسه، ولكنها مع ذلك تبعثنا من خلف الوجدان إلى النشاط والطموح والعمل.

وأحياناً يكون الانفصال عظيمًا بين الواقع والخيال، والمسافة بينهما ليست عظيمة فقط، بل شاسعة، ولكن قد يتسلط هذا الخيال بقوة مرغمة؛ وخاصة إذا كان الواقع سيئاً لا يطاق، وعندئذ يكون الجنون، أو على الأقل الشذوذ.

وهنا أذكر قصة وضعها كاتب روسي عن امرأة كانت تكسب عيشها بكنس البيوت وغسل الملابس، ولكنها كانت تستأجر أحد الطلبة كي يكتب إليها على لسان محب عاشق ولهان خطاباً غرامياً، وتأخذ هي الخطاب وتكتب عنوانها على الظرف وتلقيه في صندوق البريد، فإذا كان اليوم الثاني تسلمته من الساعي وفتحته وجعلت أحد الجيران يقرؤه لها. وكلنا هذه المرأة، ولكننا نتعقل فلا نتورط في مثل هذا الجنون أو الشذوذ، فإن هذه المسكينة قد رسمت لنفسها مائلة وتخيلتها، وحلمت بأنها سوف تكونها ولكنها لم تستطع أن تكونها، فوثبت إلى التحقيق بطريقة صبيانية تتأخم الجنون.

وما هي مائلتك التي تحرك نشاطك وتبعث خيالك وأحياناً تحملك على التفكير المجدي أو التفكير العميق؟

إننا يجب أن نبني مائلتنا بناء حسناً؛ كي لا تتجاوز الواقع كثيراً، أو أيضاً لا تستوي به، يجب أن تكون مائلتي أعلى من الواقع، ولكن ليس إلى العلو الشاهق، وذلك كي أستلهمها وأجد منها المحرك لنشاطي. وبكلمة أخرى يجب أن نربي خيالنا.

حين نحلم ونحن أيقاظ

روى جيته أعظم أدباء ألمانيا أنه كان كثيراً ما يستسلم لأحلام اليقظة؛ أي: لخيالات لذيدة تتفق وأمانيه التي كان يرجو لو أنها تحققت في الماضي، ومن هذه الأحلام التي كان يلذ له أن يستعيدها ويجترها أنه كان يتخيل أن أميراً من الأمراء العظام قد مر بالمدينة الصغيرة التي كان يعيش فيها أبواه، وأن هذا الأمير قد وقع في غرام أمه، وكان — أي: جيته — ثمرة هذا الغرام. ولذلك كان يحب أن يعتقد ولو في الخيال أنه باعتباره الأديب العظيم الذي يجلب اسمه في أنحاء ألمانيا بل أوروبا لا يصح أن يكون ابن ذلك المحامي المتواضع في تلك المدينة الصغيرة التي ولد فيها؛ إذ يجب أن يكون ابن أمير؛ لأن أمير الأدب والقلم يجب أن ينبع من أمير السيف والسياسة.

ومع سخف هذا الخيال وما ينطوى عليه من قبح التفكير بشأن الأم التي يجب أن يلصق معناها في خيال الابن بالطهارة والأمانة، مع ذلك يجب أن نقول إن أحلام اليقظة كثيراً ما تجر إلى خيالات سخيفة، وهذه الخيالات تثبت أننا والمجرمين سواء في بعض الأحيان، ولكن الفرق بيننا وبين المجرمين أن ما نحلم به ونقف فيه عند حدود الحلم يعمد المجرم إلى العمل به وارتكابه.

ولكن ليست أحلامنا في اليقظة تجري كلها على هذا النسق من السخف؛ فإننا أحياناً نعين الأهداف البعيدة ونجتز الأمانى الجميلة في فترات الاسترخاء والراحة، أو حتى وقت الأرق. فنتخيل أنفسنا ناجحين أو متفوقين، ونحن في هذا التخيل نتوسل إلى الغاية بالتفكير في الجد أو الاقتصاد، ونتدبر التدابير لذلك، فإذا تكررت هذه الخيالات وتنوعت أساليبها، مع بقاء الغاية واضحة متميزة، فإنها تحدث لنا شهوة؛ أي: عاطفة قوية، تعين لنا سلوكنا في الحياة، وتولد الإرادة لتحقيق الهدف أو الأهداف التي تخيلناها.

ويجري كل هذا في الكامنة؛ أي: العقل الكامن من حيث لا نجهد؛ لأن كل حركة من حركاتنا، وكل فكرة من أفكارنا تنحو هذا النحو، وهو تحقيق الخيالات التي نعلم بها في أوقات اليقظة والنوم؛ لأن هذه الخيالات توحى إلينا الأفكار والخواطر التي تؤدي إلى تحقيق الحلم الذي نعلمه.

ولكن إذا تركنا أحلام اليقظة تجري عفواً بلا قيد فإننا نرى أنها تسخف، أو تنتهي إلى تفريغ للكظوم المختلفة التي نلقاها في النهار وقت العمل. ولهذا التفريغ قيمته التي لا تنكر في التخفيف من القلق والكرب والضيق، ولكنه سلبي لا ينضج الشخصية ولا يرقى النفس.

ولذلك يجب أن يكون لنا شيء من الضبط والرقابة على أحلام اليقظة؛ حتى لا تتماهى في خيالات سخيفة، مثل خيالات جيته بشأن أبيه الأمير، أو خيالات مستحيلة كما يحدث حين يتخيل أحدنا أنه ملك، أو قائد جيش، أو ثري يملك الملايين.

وهذا الشيء من الرقابة والضبط يجعلنا نملك الزمام لخيالاتنا، فلا نتركها مسيية مطلقاً في فوضى، ولكن يجب أيضاً أن نرخي الزمام ولا نشده حتى تجري هذه الخيالات فيما يشبه أحلام النوم، فبدلاً من أن يتخيل أحدنا أنه ملك وتتبدد بذلك خيالاته في سخف وفوضى، يستطيع أن يتخيل أنه محام عظيم، فهنا نجد خيالاً يمكن تحقيقه، ونحن في أحلام اليقظة نبعث هذا الخيال ونفكر في صورة المحامي الناجح من حيث فصاحة القول وبلاغة البيان، والوقوف على آراء الفقهاء والقوانين، والعناية بالهندام واختيار المكتب في المكان اللائق، والكلمات التي نتبادلها من المتقاضين، والأجر العالي الذي سنحصل عليه، والمقام الذي سيعترف لنا به المحامون والقضاة والمتقاضون. وكل هذا يجري خيالات كالأحلام ونحن في اليقظة الهامدة قبيل النوم أو بعده، وتحدث لنا من هذه الخيالات عاطفة تؤكد لنا الإرادة إلى التحقيق، فنجد أن سلوكنا ونشاطنا موجهان معنيان بهذه الإرادة، وعندئذ لن يكون النجاح بعيداً.

وهو نجاح لا نحس أننا نتعمده عن قصد ووجدان؛ إذ هو يأتينا عفواً، بل أحياناً قسراً.

وهذا هو الشأن في جميع الناجحين؛ فهم لا يتعمدون النجاح وإنما يحلمون به، حتى تتألف من أحلامهم — أحلام اليقظة — عاطفة تسوقهم إلى هذا النجاح، ولذلك كثيراً ما يعجز الناجح عن تعليل نجاحه.

الغلو هو طابع الشخصية البارزة

يكثر الكلام عن الشخصية، ولكن من العسير تعيين معناها، بل إن هذا المعنى قد يحتاج إلى مجلد. وكلمة الشخصية تحتوي ألواناً كثيرة من السلوك الذي يتدرج من الرشاقة الاجتماعية والعناية بالهندام، واللغة إلى تحمل المسؤوليات الجسيمة التي تخلق في الضعيف قوة.

هناك شيء يعرفه كل منا في الشخصية البارزة، هو الغلو؛ ذلك أن الشخصية البارزة لا تكاد تعرف الاعتدال أو التوسط، وليس من ينكر أن للاعتدال مزاياه، ولكن كلامنا هنا ينصب على الشخصية. وهناك بلا شك تناقض بين ميزات الشخصية وميزات الاعتدال؛ فنحن — مثلاً — نستطيع أن نبين فضائل الاعتدال، ولكن المعتدل الذي يتجنب الغلو يبقى فاتراً لا يفور ولا يغلي، ولذلك لا نعزو إليه الشخصية البارزة التي تنأى عن الاعتدال وفضائله، ولكنها تبرز بما فيها من غلو أو غلواء.

اعتبر الإسكندر المقدوني أو محمد الفاتح أو تيمورلنك أو نابليون، فنحن هنا إزاء شخصيات قوية جداً، ولكنها بعيدة عن الاعتدال؛ لأن قوتها تنحصر في الغلو. واعتبر في عصرنا أولئك الذين لا نذكرهم إلا وتمثل لنا شخصيات ضخمة تملأ التاريخ؛ اعتبر سعد زغلول، أو محمد عبده، أو قاسم أمين، فإننا نجد هنا غلواً أيضاً في ناحية معينة؛ دينية أو اجتماعية أو سياسية، وحين نقرأ تاريخهم نجد أن خصومهم قد عابوا عليهم هذا الغلو. ونحن نعزو إلى المتنبي شخصية لا نعزو مثلها لأي شاعر آخر، فإذا تعقبنا الأسباب وجدنا أن غلوه هو السبب.

والغلو ينبع من الإرادة ولا يصدر عن العقل، بل إن العقل أحرى بأن يبعث الشكوك ويوازي بين الكفتين ويدعو إلى الاعتدال، ولكن الإرادة عندما تحتد تصير غلواً، وعندئذ نجد الشخصية. ولذلك نحن نجد الشخصيات البارزة في أولئك الذين يتطلب منهم ميدان

أعمالهم إرادة أكثر مما يتطلب عقلاً؛ كأولئك القادة للجيش والثائرين، أما الفيلسوف الذي يعمل بعقله دون إرادته فلا نكاد نعزو إليه شخصية ما.

وأحياناً نصف أحد الناس بأنه يمتاز بشخصية لأنه يهدف إلى هدف واحد لا يحيد عنه، فإذا كان تاجرًا فهو لا يفكر في غير التجارة، يحفل رأسه على الدوام بالمشاريع المالية، وهذا الهدف الواحد يحمله على الغلو، فيمثل أمامنا على شخصية بارزة، حتى ولو كان هذا الهدف مخطئاً أو ليس له خطر، وحين يجنح الكاتب إلى فكرة معينة ويثابر على الدفاع عنها، فإن هذه الفكرة — ولو أنها ذهنية وليست إرادية — تكسبه غلواً؛ كما نرى — مثلاً — في قاسم أمين ومحمد عبده، ولكن يجب ألا ننسى أن المثابرة والدفاع يعودان إلى الإرادة.

ولكن يجب ألا يكون سبيلك إلى الغلو مفتعلاً؛ لأنه — عندئذ — يبدو مصطنعاً لا أصل له؛ لأننا إنما نغلو حين نتحمس، ولكن هذه الحماسة لا تنشأ في نفوسنا ولا تدفعنا إلى الغلو إلا إذا كنا نحب العمل الذي نمارسه، بحيث يطغى حبه على شخصيتنا، ويوجهها إلى هدف لا نحيد عنه.

وبكلمة أخرى نقول إن من يرغب في شخصية بارزة يحتاج قبل كل شيء إلى أن يمارس العمل الذي يهواه عن رغبة واستعداد، وهذه الرغبة تحول دون التفاته إلى مشاغل أخرى، فيتعين له الهدف الذي يجعل كل طاقته تنصب على بلوغه، وهو لأنه يرغب ويهوى سيتحمس، فتكون الإرادة النارية التي تؤدي إلى العزيمة والصبر والثبات والطموح، وكل هذه تؤدي إلى الغلو، إلى الشخصية البارزة.

الأحلام والحرمات

يعرف المبتدئون في دراسة السيكولوجية أن الحلم يحقق رغبة أو شهوة وقت النوم لا نستطيع تحقيقها وقت اليقظة، ومثال الجوع أو العطش يوضح ذلك؛ فإن هناك المرضى الذين يحرم عليهم الطبيب الطعام أو الشراب إلا بمقادير، فهم يجوعون ويعطشون، فإذا أخذتهم سنة من النوم امتلأت رءوسهم بالأحلام التي يأكلون فيها ويشربون. وهذا أيضًا شأن الشبان المحرومين من الانفراج الجنسي، فإنهم وقت النوم يجدون ما يشتهون وقت اليقظة.

ولكن أحياناً نجد طفلاً أو صبيًا دون السابعة أو الثامنة يصرخ وقت نومه، وقد يستعصي علينا فهم سر هذا الصراخ؛ إذ ليس هو شهوة الطفل أو رغبته، ولكن عندما نذكر أن أمه كانت تضربه ثم تمنعه من الصراخ نعرف أن هذا الصراخ في النوم يمثل رغبة كانت مكظومة وهو يضرب وقت الصحو.

وإلى حد ما يمكن تفسير الكابوس بأنه هو أيضًا شهوة مكظومة، وكان يجب أن يصرخ، ولكنه كان يصمت، فلما نام تفككت الروابط الاجتماعية والأخلاقية التي كانت تلزمه الصمت، وتمثل الخوف في هيئة كابوس، فصرخ.

والرجل الذي يتحدث وهو نائم إنما يعبر عن رغبات مكظومة كان يخجل أو يخشى أو يسخر من البوح بها وهو يقظ.

وإلى هنا نعرف هذا الشيء المألوف في الأحلام، وهو أنها تعبر عن شهوات ورغبات نكظمها ولا نبوح بها لأي سبب وقت اليقظة؛ لأننا مقيدون بروابط اجتماعية وأخلاقية، والنوم يفكك هذه الروابط.

ولكن هناك عوامل أخرى تبدو كأنها تخالف الرغبة أو الشهوة المكظومة، ولكنها عند التحليل تعود إلى هذا المصدر؛ ذلك أننا لا نختلف في صحونا مما نحن في نومنا إلا من

حيث الكتم والكظم، لكن شخصيتنا هي لا تتغير، ونحن في اليقظة أمام الناس نلبس ملابسنا ونستتر كأننا قد ولدنا بالملابس، فإذا دخلنا غرفتنا خلعنا هذه الملابس ولا نبالي أن نكون عرايا، وهكذا النوم؛ فإننا نخلع فيه قيودنا الاجتماعية ونرضى بالعري التام لا للجسم ولكن للنفس.

فإذا كنا نعالج مشكلة خاصة فإننا في اليقظة نعالجها مع القيود، وفي النوم نعالجها بلا قيود، بل نعود إلى أساليبنا القديمة في المعالجة؛ أي: نعود إلى العاطفة دون العقل. ولذلك نستطيع أن نمنع الكابوس بأن نتحدث مع الصبي أو الرجل قبيل نومه عن موضوع هذا الكابوس ونناقشه فيه بالتعقل، فإذا نام بقيت أساليب التعقل في نومه، ومنعت العاطفة من التسلط، فيمتنع الكابوس.

والحلم في صميمه اختراع، أو محاولة بدائية لحل مشكلة أو تخيل لذيذ؛ ولذلك فإن الرجل الأبله أو المغفل لا يحلم؛ لأنه قد يعجز عن الاختراع الذي يحتاج إلى التخيل. وكذلك الرجل الشجاع الذي تعود الصراحة والتعقل ومجابهة الصعوبات لا يحلم بالكابوس؛ لأنه لا يخاف؛ أي: ليس عنده خوف مكظوم يخفيه في النهار فيثب في الليل وقت النوم.

والرموز كثيرة في الأحلام، ولكنها أحياناً رموز مادية لرغبة غير مادية؛ وذلك لأننا وقت الحلم نرتد إلى الأساليب القديمة المنقرضة في التعبير عن المعنى، فهذا شاب — مثلاً — يخشى الرسوب في الامتحان، فهو يرى في الحلم أنه يسقط من السقف أو الشرفة، وهنا لا يعبر الحلم عن رغبته؛ إذ هو لا يريد أن يرسب، ولكنه يعبر عن خوفه الذي لا يطيق التصريح به وقت اليقظة، فهو قد حمل همه الذي يشغله مكظومًا في اليقظة إلى النوم، واستمر هذا الهم حيًّا حتى في الحلم، وحالته هنا سيئة يحتاج فيها إلى الإيحاء بالنجاح. وهناك شاب يحلم أنه يطير فوق القاهرة، والحلم لذيذ، وهو رمز إلى العلو والتفوق والخفة والسهولة، وكل هذه صفات الارتقاء الذي ينشده.

ويرى فرويد أن هذا الحلم جنسي؛ أي إن الشاب قد تسامى بالشهوة الجنسية وأحاله إلى طيران، ويرى أدلر أنه طموح وتشوف، والمعنيان يتقاربان، وكلاهما سار يدل على حال نفسية حسنة.

ونستطيع إلى حد ما أن نتسلط على أحلامنا ونحلم كما نريد، كما لو أخذنا قبيل النوم في الاستسلام للخواطر السارة: سياحة جميلة في البحر المتوسط أو النيل، أو التنزه على جبال الألب، أو السير بين الحقول على مجرى الماء والخراف ترعى شطوطه، أو الحديث

إلى حبيبة جميلة، أو نكتة نذكرها ونضحك منها، أو ذكرى نجاحنا السابق، أو نحو ذلك، فإن هذه الخواطر تبقى إلى النوم، والنفس تخطط بها، ثم تستحيل إلى أحلام ننساق في سياقها السار.

وبالطبع إذا كانت هناك حوادث شاغلة مقلقة فإنها بلا شك تعود وتأخذ مكان هذه الأحلام السارة، ولكن من الحسن لمن يخشون الكابوس أن يستخطروا هذه الخواطر السارة قبل النوم، فإنها لن تضر إذا لم تمنعه.

ولكل إنسان أسلوبه في أحلامه، كما أن له أسلوبه في المشي أو الكتابة أو الكلام أو المعاملة، وكلاهما — أسلوب اليقظة وأسلوب الحلم — يتناسقان؛ لأنهما يهدفان إلى هدف واحد، وما دام للإنسان شخصية واحدة فإنه لن يتغير في أحلام نومه مما هو في تفكير يقظته، ونعني هنا بكلمة التغير أنه لن تكون له أهداف أخرى في حلمه غير أهدافه في يقظته، ولكنه يتغير في الوسيلة؛ إذ هو في اليقظة يعتمد على عقله، أو على شيء من العقل، أما في النوم فإنه يعتمد على العواطف التي تدفعها الرغبة أو الشهوة.

قلنا إن أسلوب اليقظة وأسلوب الحلم يتناسقان؛ وذلك لأن لكل إنسان شخصية متناسقة تسلك وتهدف من حيث ندري أو لا ندري إلى هدف أو أهداف معينة بأخلاق وعادات معينة، ومن هنا ما يحدث لكثير من الناس، وهو أن ما يجده أحدنا في حلمه قد يعود فيجد أنه وقع له في يقظته.

وعلة ذلك واضحة: لأننا في الحلم نشتهي ما حرمانه ونفرج عما كنا نكظمه، وهذا الاشتهاء يبقى وحييا في يقظتنا حتى حين ننكر ذلك بضغط الأخلاق الاجتماعية؛ ولذلك كثيراً ما تتحقق الأحلام لأننا نرغب في تحقيقها من حيث لا ندري، كأحدنا يحلم أنه ينتحر، ثم ينتحر، أو هو يحلم بأنه قد نال درجة ارتقى إليها ثم ينالها؛ لأنه في يقظته قد دأب في بلوغها بشتى الوسائل.

وأفكارنا الكامنة التي لا ندري بها تظهر في أحلامنا، وهي توجهنا في يقظتنا؛ أي: تعود فتحقق أحلامنا.

ومن هنا اعتقد بعض الناس بأن الأحلام تتحقق في المستقبل. وحين تكون المشكلة التي تشغلنا في النهار بعيدة عن الشهوات والعواطف فإننا أحياناً نحلها في النوم بأحسن مما نحلها في اليقظة، كأن تكون — مثلاً — مسألة في الحساب أو الهندسة، فإننا وقت اليقظة قد نتقيد بمشاغل تمنعنا من الحل، أما في النوم فإننا ننطلق في حرية تامة إلى الحل.

وإلى حد ما نستطيع أن نسمي الحلم جنوناً وقتياً، ومعنى هذا أن المجنون يكون في حلم دائم لا يتقيد بالواقع، وهو يستسلم لتخيلاته؛ أي: أحلامه، كأنه لا يرانا ولا يسمعنا ولا يبالي من حوله من الناس والأشياء، ونحن في الحلم نكون كذلك ولكن لوقت معين. عرفت شاباً كان قد تززع وأوشك على الجنون، فكان أول ما شكا منه لي أنه يريد أن يصرخ، ولكنه لا يستطيع ذلك للاعتبارات الاجتماعية والأخلاقية. هذا الشاب قد امتلأت نفسه بالمخاوف فهو يريد أن يصرخ.

وهو عندما ينام سيطراً عليه الكابوس فيصرخ ويرتاح بعض الشيء؛ لأن الكظم سيفرج بعض الوقت، إذ هو يشتهي الصراخ ولكنه يكتمه مع أنه لا يطيق الكتم. ولكن العلاج الناجع أن نحلل هذه المخاوف ونوضحها له، وهي في الأغلب مخاوف طفلية سخيفة رسبت في نفسه، فإذا كشفنا عنها ونفضناها استطاع أن يتعقلها وأن يتخلص منها.

وأحياناً يكون التحليل متعباً طويلاً؛ لأنه هو يخفي ويجهد ليخفي أشياء كثيرة. وخير ما أفعله مع هذا الشاب هو أن أجعله يكتب تاريخ حياته منذ ولد كما يذكر أو يظن أنه يذكر؛ لأن ذاكرتنا انتخائية، فنحن نختار منها ما يشغلنا إلى اليوم، أو ما له أثر في عواطفنا وميولنا إلى اليوم؛ ولذلك فإنه حتى حين يخترع حادثة يظن أنها حدثت فإن لهذا الاختراع دلالة، والحادثة المخترعة هنا لا تختلف عن الحلم.

ثم هو حين يعبر بالكلمات عن الحوادث الماضية، وعن مخاوف الطفولة، إنما يرفع هذه الحوادث إلى منطوق العقل؛ لأن اللغة منطوق، والكلمة الإغريقية لعلم المنطق تعني اللغة، والترجمة العربية تعني ذلك أيضاً، وترتيب الكلمات في ذكرى العلة أو تعليلها أو وضعها هو في النهاية تقليل وترشيد.

ولذلك كثيراً ما يشفى المريض من أزمته النفسية بمجرد كتابة تاريخ حياته.

هل يمكن أن نزيد ذكاءنا؟

نستطيع أن نرتب درجات الذكاء في الناس باللغة الدارجة، بأن نقول إن هناك:

- العبقريين الأفذاذ الذين يبتكرون ويجددون.
- والأذكىء المحوظين في التمييز واليقظة الذهنية.
- والعاديين الذين لا يلفتون النظر بذكاء أو ببلادة.
- والبلداء الذين يقصرون عن الفهم مع التكرار.

وإذا فرضنا أن درجة الرجل العادي مئة، فإن العبقري قد يصل إلى ١٨٠، كما ينخفض الأبله إلى ٦٠ و ٥٠، ويتدرج الآخرون بينهما. والرجل العادي لا يرتفع إلى ذكاء بارز، ولا ينخفض إلى بلادة واضحة، وتسعون في المئة من الناس، بل أكثر، عاديون، ولكننا نحب أن نسأل هنا:

- ما هي علامات الذكاء؟
- وهل نستطيع نحن العاديين أن نرتفع إلى ذكاء بارز؟
- وماذا يجب أن نفعل أو نسلك حتى نصل إلى هذه المرتبة؟

فأما علامات الذكاء فكثيرة، ولكن الأهم فيها أن الرجل الذكي يمتاز باهتمامات حيوية، تراه عند مشكلة ما يلتفت إلى الأصول دون الفروع، فهو — مثلاً — عندما يقرأ الجريدة تجذبه الأنباء العالمية التي تؤثر في العالم أو تغيره دون الالتفات إلى الأخبار الصغيرة الاجتماعية، وهو يمتاز لهذا السبب بأفاق رحبة في تفكيره، وهو يشتري الجريدة أو يقرأ الكتاب كي يزيد فهمًا وليس ليزيد تسلية، وهو في حديثه يتناول موضوعات كبيرة القيمة.

ثم هناك علامات أخرى للرجل الذكي تكاد تكون أخلاقية، ولكن أساسها ذهني؛ ذلك أنه لا يفهم النجاح على أنه نجاح الحرفة وإنما نجاح الحياة، وهذا يدل على أن نظرتة كلية وليست جزئية؛ فهو يحاول أن ينجح في حرفته وعائلته ومجتمعه وثقافته وثرائه، لا يقنع بالنجاح في واحد من هذه الأشياء، فذكاؤه هو ذكاء الحياة كلها وليس ذكاء جزء منها.

ويمتاز الرجل الذكي بتعدد الاهتمامات؛ فهو إذا كان طبيياً لم يقتصر على الطب؛ إذ هو يعالج الأدب أيضاً، وهو إذا كان تاجراً لم يخل على نفسه بساعات يقضيها في الاهتمام بأشياء أخرى غير التجارة، ومرجع هذا أنه يستطلع كثيراً ولا يستطيع أن يحجز نفسه في حواجز وسدود.

وعندي أن أعظم ميزة للرجل الذكي أنه موضوعي في الأكثر وليس ذاتياً إلا في الأقل، وهو يعالج المشكلات التي تصادفه معالجة علمية حتى ولو لم يكن يدري العلوم؛ أي إنه يتجرد من ذاتيته ويصير وجدانياً يزن الأشياء بالقيم التي لا تمت إلى إحساسه وعاطفته.

هذه العلامات البارزة للأذكىء، فهل نستطيع أن نأخذ بها ونتعودها؟

قبل أن نصل إلى هذه النقطة نحتاج إلى أن نذكر أشياء عن الذكاء: ماهيته وأصله، وهل هو موروث أو مكتسب، وما تأثير التربية فيه ... إلخ.

ليس شك في أن مكان الذكاء هو المخ، فالمخ يفرز الأفكار كما تفرز المرارة الصفراء، وهناك في كل رأس بشري عشرة آلاف مليون خلية تقوم بهذه المهمة، ولكن الذكاء لا يتوقف على كثرة هذه الخلايا؛ لأن كثيراً من الأذكىء يتصفون براءوس صغيرة، كما أن بعض المغفلين والبله يتصفون براءوس كبيرة، ولكن الأغلب — وهذا ظن — أن الذكي يمتاز بشرايين سالكة حسنة تغذو المخ، في حين أن الأبله قد ترجع بلاهته إلى انسداد هذه الشرايين، وأنا أعمد في هذا التدليل على ما يحدث للمسنين، فإن نسيانهم وخرفهم يعزيان إلى هذا الانسداد الذي يؤدي إلى قلة الدم الذي يغذو خلايا المخ.

والرأي العام في الأوساط السيكولوجية أن الذكاء موروث مثل القامة أو اللون، ولكن هذا الرأي قد تززع بعض الشيء وقد أصبحنا نؤمن بالوسط وأثره في زيادة الذكاء، ومعنى هذا الوسط هنا هو التربية الأبوية والمدرسة ومصادفات الحياة وعادات الطفولة التي تثبت أو تهيب للمستقبل، ونحن هنا إزاء الذكاء كما كنا إزاء الإجرام قبل خمسين سنة، فقد كان الرأي — وقتئذ — أن المجرم مولود وأنا مهما ربيناه وأصلحناه لن يصلح، ولكن الرأي الحديث أن الإجرام يعود إلى الوسط، أو على الأقل نحو ٩٧ أو ٩٨ في المئة من المجرمين قد أجرموا للوسط السيئ الذي عاشوا فيه.

هل يمكن أن نزيد ذكاءنا؟

وليس الشأن كذلك في الذكاء، ولكن الإيمان بأن الوسط يزيد الذكاء أو ينقصه قد أصبح يجد القبول والتفكير؛ أي: لا يجد ذلك الرفض الذي كان يجده قبل عشر سنوات. وهناك مركبات أو عقد سيكولوجية تزيد الذكاء أو تنقصه، والذي يحدث هذه المركبات هو الوسط.

فمركب النقص — مثلاً — يحرك العواطف إلى نواحٍ مختلفة من النشاط والانتباه الذهني، وقد يؤدي هذا المركب إلى الحسد أو الغيرة أو الخوف أو الريبة، ولكل هذه آثار في توجيه الذكاء وتنبهه.

ولكن إذا كان هذا المركب طاغياً كما نرى في الزوج في الولايات المتحدة، فإنه يحدث بلادة ذهنية، كأن هذا الناقص يقول لنفسه: ما الفائدة من الانتباه؟ إن هناك محظورات تعين لي فكري يجب ألا أتجاوزها.

وهذا هو أيضاً شأن المرأة الشرقية التي تحد التقاليد من نشاطها الذهني في المجتمع أو الثقافة مثلاً، وأحياناً تؤدي العاهة أو الشوهة في الوجه أو الجسم إلى تفوق ذهني؛ لأنها تحث على الانتباه واليقظة.

وكثير ممن نسميهم بلداء قد ترجع بلادتهم إلى عقد نفسية، أو عادات قد أحدثها وسط سيئ من زوجة أب قد اضطهدت الطفل، أو زوجة قد أحالها الزوج إلى قطة مطيعة لا تفكر ولا تسأل ولا تستطلع، بل هنا قد ينحرف التفكير إلى مجارٍ سيئة.

والطفل المدلل يكون في العادة ذكياً؛ لأنه متحرر من القيود الأخلاقية والعقد النفسية، ولكنه من الناحية الاجتماعية يعد مجرماً أو قريباً من المجرم، أما الطفل المضطهد فينقص ذكاؤه للعقد النفسية التي يحتشد بها صدره، وهو قد يزيد لنفسه هذه العقد؛ لأنه وجد اتجاهًا آخر أوحى به وسط حسن.

وعلى ذلك أنا أعد المركبات أو العقد النفسية التي ننشأ بها من أيام الطفولة هي السبب الأكبر لتفاوت الذكاء بين الناس، وليس هو الاختلاف في الخلايا المخية؛ لأننا متقاربون في عدد هذه الخلايا، والانسداد الشرياني قبل الشيخوخة قليل، وبالطبع هناك حالات شاذة لا تدخل في حسابنا هنا.

وعلى كل شاب ألا يتهم نفسه بالغباوة أو البلادة، وأن يذكر أن رأسه لا يختلف عن رأس أرسطو طاليس أو نيوتن أو أينشتين، وإنما ميزة هؤلاء أنهم نشئوا بمركباتٍ وجّهتهم وجهات معينة.

ونصيحتي للقارئ أن يقرأ الكتب الحسنة التي يهدف منها إلى التعلم وليس إلى التسلية، فإن هذه الكتب تبسط له آفاقاً متراحة تزيد شوقاً إلى الاستطلاع والمعرفة،

ومعنى هذا أن اهتماماته تكثر وتتعدد، فيشتغل ذهنه كثيراً ويجد المجال للتدريب والتفكير في الاجتماع والسياسة والأدب والفن.

وبهذا التوسع تزيد ثروته من الكلمات التي تحمل المعاني للثقافة العامة، فيزيد تفكيره، وعليه أن يترث في قراءته، وأن يقرأ مع القلم؛ أي: ينتقد على الهوامش، وهو حين يفعل ذلك يحس كأنه قد اشترك مع المؤلف في التأليف.

ولكن القراءة ليست الميدان الوحيد لزيادة الذكاء وتدريبه، فإن الحوادث التي تصدمنا كل يوم تغيرنا بمقدار ما نستجيب لها بنقد أو بتسليم، وباستطلاع أو بجمود، ثم تتكرر هذه الاستجابات فتصير عادات.

ومن أحسن العادات لزيادة الذكاء أو تدريبه أن نستطلع وننتقد، وأن نصادف المشكلات بالتجرد من عواطفنا، فننظر النظر الوجداني التعقلي بدلاً من النظر العاطفي الذاتي، وهذه العادة وحدها هي ٩٩ في المئة من الذكاء، إن لم تكن هي كل الذكاء.

ومن أحسن العادات أيضاً لتدريب الذكاء أن نحضن الفكرة كما تحضن الدجاجة بيضها، فلا نرتجل، ولكن نفكر في الموضوع ثم نتركه كما لو كنا قد نسيناه، حتى إذا انحدر إلى كامننا؛ أي: العقل الكامن، وبقي ليلة أو أسبوعاً، أخذ ينمو في أذهاننا من حيث لا ندري، ثم يختم كما لو كان جسماً حياً، ثم تتكاثر حوله الأفكار ويثب إلينا ناضجاً. ونستطيع أن نرتب هذا الاختمار ونصل به إلى النضج في موضوع أدبي — مثلاً — بأن نعمد إلى الموضوع عند أول لقائنا به، فنضع عناصره، ثم نتركها يوماً أو أكثر، ثم نعود إلى كتابتها تفصيلاً.

وأياً مشكلة يمكن أن تعالج بهذا الأسلوب أيضاً: تفكير ابتدائي، ثم طرح للموضوع، ثم عودة إليه.

امنعوا هذه الموسيقى

عندنا موسيقيون ومغنون يعزفون ويغنون، وهم رجال ونساء، لا أسمع لواحد منهم إلا وأحس اشمئزازًا ذهنيًا يغمر نفسي كأنه إحساس المهانة أو الصغار أو الخسة، ولست أتعجب مع ذلك من أن هناك من يلتذون هذه الألحان وهذه الأغاني؛ لأنني عندما أتأملهم أجدهم إما حشاشون قد بنَّجهم الحشيش، أو سكارى، أو هم قد استسلموا للغريزة الجنسية الغشيمة التي لم تهذب بفنون المتمدنين.

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح؛ ذلك أننا في القرون المظلمة التي عشنا فيها مئات السنين والجنسان منفصلان، لا يختلط الرجل بالمرأة فيتهذب، ولا تختلط المرأة بالرجل فتتعقل، في هذه المئات من السنين انحطت المرأة وأصبحت أنثى فقط.

وتخصصت الجوارى في الفنون الجنسية كما كانت البغايا تتخصص لذلك، ثم اقتصر الرقص والغناء على الجوارى؛ أي: القيان، وكانت القينة التي يقتنيها الثري تشتري بالمال كي تحرك الشهوة الجنسية بالعزف والغناء، وإلى وقت قريب كنا في مصر نسمي المغنيات «عوامل»؛ لأنهن كن يتعلمن هذا الفن في حين أن المرأة الحرة كانت تجهله، وقد ورثنا هذه الكلمة عن أيام الرق.

فلما ألغى الرق أصبحت المرأة الحرة تمارس الرقص والغناء والعزف على النحو الذي كان متبعًا بين الإماء؛ أي: الجوارى، وكان كل هذا يتجه نحو تحريك الشهوة الجنسية بطريقة مبتذلة في إلقاء كلمات الشعر والغرام، أو إيماءات اليد والصدر والساق والحاجب والفم، فيما كنا نسميه رقصًا.

وقد كان هذا الرقص شائعًا في مصر إلى ما قبل ثلاثين سنة، وقد اضطرت الحكومة حفظًا لكرامتنا أن تلغيه؛ لأنه لم يكن أكثر من التهتك المركز الذي كان يمثل الاتصال

الجنسي تمثيلاً وقحاً، ولم يفكر الإنجليز أمام تسلطهم في إلغائه؛ لأنهم بالطبع كانوا يجدون فيه الفضيحة التي تعلن للأمم أننا في انحطاط بعيد الأعماق.

وهذا الرقص الذي ألغيناه كان يرافقه — في تناسق وارتباط، بل في تلاحن وتناغم — عزف الآلات الموسيقية وغناء الفرقة المحيطة بالراقصة؛ أي إن الموسيقى والغناء كانا أيضاً سيران سيرة التهتك الجنسي، إذ لم يكن التناقض معقولاً؛ أي: لم يكن معقولاً أن تنهتك الراقصة في حركاتها وإيماءاتها ثم يتخنت المغنون؛ إذ يجب أن يسير الجميع متناسقين متلاحنين متناغمين.

فلما ألغينا الرقص وانتهينا (هل انتهينا؟) من هذه الفضيحة، بقي الغناء والموسيقا على حالتيهما الأصليتين، وهما تحريك الشهوة الجنسية، وما زلنا نجد في الألحان التي يختارها العازفون والمغنون.

وهنا تنبيه للقارئ، أن المرأة تعبر عن الحب بأصوات التآلم والتوجع، وكأنها تتراح لذلك، وهذا إلى حد ما طبيعي، ولكنه إذا زاد أصبح مرضاً يدعى «المازوكية»؛ أي: التذاذ الألم.

فهنا إذن جملة حقائق:

الأولى: أن الرقص القديم الذي ألغيناه كان يمثل الحركات والإيماءات الجنسية.

الثانية: أن الأغاني والألحان التي ورثناها من هذا الرقص كانت تتناسق معه في هذا الاتجاه الجنسي.

الثالثة: أن المرأة التي كانت ترقص تعبر عن الألم، ولذلك كانت الألحان والأغاني تعبر هذا التعبير أيضاً بالتأوهات والتوجعات.

الرابعة: على الرغم من أن المغني قد يكون رجلاً فإنه لا يزال يلتزم في أغانيه هذه التأوهات والتوجعات، كأنه يريد أن يتناسق مع الراقصة القديمة.

وجمهور الرجال الذين لم يحصلوا على تربية فنية يلذ لهم أن تحركهم وتحمسهم هذه الألحان والأغاني، فهم يستمعون إليها في اهتياج جنسي واضح، كما يستطيع أن يشهد بذلك أي إنسان حضر حفلة غنائية، وهذه الشكوى الملحة التي نستمتع إليها في أغانيها، والتي تكاد تبلغ البكاء كما نرى من أسمهان، إنما هي في صميمها «مازوكية» نسوية؛ أي: اللذة من الألم، وهي التي ينقلها الرجال من المغنين؛ لأنهم ينساقون وراء النغمة الغالبة. ومعظم المستمعين لهذه الألحان والأغاني يحبون الحشيش والخمر؛ لما فيهما من قتل للوجدان، فتزيد اللذة من المازوكية التي فيها.

ومع كل هذا الذي قلت لست أنكر في التحليل السيكلوجي الأصل الجنسي للموسيقا والغناء، بل للشعر والأدب عامة، والدور الموسيقي هو في صميمه دور جنسي، لا شك في ذلك: يبنتدي بطيئاً، ثم يتكرر، ثم يصل إلى الذورة، ثم يحدث الاسترخاء.

ولكن هناك فرقاً عظيماً بين الدور الجنسي السافر وبين الدور الجنسي الذي تسامى به الفن المثقف، وما زالت أغانيها وألحانها في الدور السافر بعيدة عن الفن والثقافة، ثم هي ما زالت تعود وتترجع إلى حركات المرأة الراقصة التي ألغينا رقصها منذ ثلاثين سنة؛ أي إنها تعبر عن التشكي والتوجع ... مازوكية.

ولا يعيب الغناء والموسيقا أن يرجعا من حيث الأصل إلى ينبوع الغريزة الجنسية، ولكن يعيبهما أن يسيرا هذه السيرة المازوكية.

وهنا لا أتمالك من الإحساس بأن الفرق بين ألحاننا وأغانيها وبين ما يقابلها في أوروبا قد يكون في النهاية فرقاً بين المرأة الشرقية المازوكية الخاضعة النائحة، وبين المرأة الأوربية المستقلة التي تعمل أعمال الرجال وتراقصهم في تكافؤ، وليس في سيادة جنس على آخر.

إن بعض جامعات أوروبا تمنح لقب «دكتور» للموسيقي العازف أو الملحن، فهل نستطيع أن نتخيل أن أحداً من الملحنين أو العازفين أو المغنين في مصر قد حصل على هذا اللقب بألحانه أو أغانيه المازوكية المتألمة التي تذكرنا بتأوهات الراقصة القديمة؟ ومما يؤسف عليه كثيراً أن الموسيقا لم تدخل معابدنا كما هو الشأن في أوروبا، حيث أعظم آلة موسيقية «الأرغن» توجد على الدوام في الكنائس، وقد كان العظيم ألبيرت شفيترز وهو دكتور في الموسيقا من أعظم العازفين على هذه الآلة، وصحيح أن في الكنائس القبطية ترانيم تلحن ويرافقها إيقاع بدائي على الصنج، ولكنها وقفت عند هذا الحد، وليس هناك أرغن واحد في كنيسة قبطية.

ولو أن الموسيقا المصرية كانت قد دخلت الكنائس وزكت فيها ونضجت وأينعت لكان من مركزها هذا ما يغير العقائد والأذواق في معاني الموسيقا في مصر؛ لأننا كنا — عندئذ — نجد الوقار والتأمل بدلاً من الابتذال والتخنث، وكنا — عندئذ — نرفض، بل نشمئز من أن تغني أماننا المرأة البغي على حركات الغنج والدلال.

عندما أقول لألم الألمانية أو فرنسية إن ابنها سوف يكون موسيقياً فإنها تعد كلامي هذا تحية لها وثناء على ابنها، وتحس كبرياء وفخراً، ولكني عندما أقول هذا القول لألم مصرية فإنها تحس كأني أسبها، أو أدعو ابنها إلى الاستهتار والمجانة، وفي هذا ما يدل على اختلاف الأصلين للموسيقا عندنا وعند الأوربيين.

لهذا السبب نحن نحتاج إلى إلغاء موسيقانا وأغانينا كما ألغينا الرقص، هذا الرقص المتهتك الداعر، رقص الأمة المشتركة، وهو الذي كان القاعدة التي انبنى عليها الغناء والموسيقا.

إن الغناء المصري يمثل المازوكية، وأكد أقول إن الغناء الأوربي يمثل السادية؛ أي: الرغبة في الإيذاء وإنزال العذاب؛ وذلك لأن السادية هي صفة الرجال في الاتجاه الجنسي. الأمم الأوربية عدوانية سادية، تتسلط وتقهّر، وتغني في نشاط كأنه عدوان. والأمم الشرقية خاضعة مازوكية، تذل وتخضع، وتغني في شكايّة ونواح كأنهما ألم، أجل يجب أن تثور على الغناء والموسيقا.

إصلاح موسيقانا وأغانينا

عندما نستمتع إلى حفلة موسيقية أوروبية يغمرنا إحساس الوجدان والتعقل وليس إحساس العاطفة والشهوة، فنحن نقعد صامتين متأملين كأننا ندرس موضوعا فلسفياً، أو نتعقل مشكلة نحاول تعمقها، ولا نبالي أن تكون معنا نساءنا من أخوات أو أمهات أو زوجات؛ لأننا لن نخشى عزفة نابية أو صوتاً فاضحاً.

ذلك أن الموسيقى قد ارتقت في أوروبا إلى الوجدان والتعقل، وارتفعت بذلك عن العاطفة والشهوة اللتين لا تزالان تغمران الموسيقى والغناء في بلادنا. وليس من السهل أن نمتحن الموسيقى والغناء، بحيث نقول هذا حسن وهذا سيء، ولكن يمكن أن نمتحن النتيجة بأن نسأل ما هو إحساسنا عقب الدور الموسيقي؟

- هل هو إحساس الارتياح الفلسفي؟
- هل هو إحساس النشاط والإقدام؟
- أو هل هو إحساس الشهوة الجنسية؟
- أو هل هو إحساس التخاذل والضعف؟

ولست أشير هنا بالطبع إلى الموسيقى العامية الأوروبية، ولا إلى الموسيقى النيوروزية الصاخبة الأمريكية، ولكنني أشير إلى تلك العبقريات الخالدة التي تركها كبار المؤلفين الموسيقيين، والتي لا يزال الجمهور الراقى يستمتع إليها ويطلبها في عواصم أوروبا، بل في أصغر مدنها.

وقد سبق أن أوضحت الأسباب التي عملت على انحطاط أغانينا وموسيقانا، وخلاصة هذه الأسباب أن كلاً منها قد نشأ ونما في حضانة الرقص الداعر الذي كان فاشياً في مصر

قبل ثلاثين سنة، وهذا الرقص كما يذكره الذين شاهدوه كان يمثل الاتصال الجنسي، ويبالغ في تألم المرأة وتوجعها بحركات وإيماءات تثير شهوة الرجال، وكان هذا الرقص هو الأصل، والغناء والموسيقا تابعين له ينغمان حركاته، فأصبح كلاهما لذلك حافلاً بالتوجع والشكاية.

بل إن هناك من المغنين المعاصرين من استمعت لهم فوجدت أنهم — لانسياقهم في المجرى الذي فتحه لنا هذا الرقص — يغنون في تألم وتوجع كأنهم نسوة يعملن لإثارة الشهوة عند الرجال!

وأحياناً عندما أتأمل المستمعين المصريين لحفلة غنائية مصرية أجد فيهم إحساساً وضيقاً، بل شاداً كذلك المبنج بالحشيش أو الخمر يروقه لحن ويقول «يا ولد»، ثم هم جميعهم قد أثير في أنفسهم توجع وألم يعبرون عنه بأهات متوالية، وهذا لا ينفي طبعاً أن بعض هذا الإحساس لا يعود إلى البؤرة الجنسية وحدها، وإنما يعود إلى أحزان العيش ومتاعب الحياة، وهي كثيرة في هذا الشرق العربي، يثيرها اللحن الشاكي كما تثير المرأة النادبة أحزان المعزيات في المأتم وتبكيهن.

ولكن البؤرة الكبرى للتوجع والشكاية من أغانيها هي بؤرة التوجع الجنسي، ولذلك فنحن الرجال نحس جميعاً خجلاً من هذه الأغاني، ولا نحب أن نصحب أمهاتنا أو زوجاتنا أو أخواتنا إلى حفلة موسيقية مصرية.

أما «مواويل» الريف فقد نشأت في وسط آخر، ولذلك ما زلنا نجد فيها رجولة، بل فحولة، بحيث نحس انتعاشاً سليماً عندما نستمتع إليها يخالف ذلك الانتعاش الذي يشبه الارتخاء الذي نحس به عندما نستمتع إلى تلك الأغاني التي تحفل بما يسمى «المازوكية»؛ أي: التألم والتوجع.

وليست أغانيها وموسيقانا مما يجوز أن يهمل؛ لأنها جميعاً تربي النفس المصرية، واللحن الذي يتجاوب في الفضاء عقب إذاعته يعين لكل مستمع موقفاً واتجاهاً في الحياة أو في فترة منها، وليس من الخير أن نترك هذه الألحان تفشي في نفوسنا هذا التوجع النسوي، أو هذه العواطف الجنسية النسوية المازوكية، وهي بحالها الحاضرة إيحاء لا ينقطع يوحي إلينا الضعف، بل التخنت، بل هي ضباب يحول بيننا وبين الرؤية النفسية الحسنة أو الإحساس النفسي السليم.

وليس من شأنى أن أضع برنامجًا للإصلاح، فإن هذا فوق طاقتي، وحسبي النقد مع الإيماء إلى بعض الوسائل الإصلاحية:

(١) يجب ألا ننسى تاريخ الغناء والموسيقا في مصر، وأن كلاً منهما قد نشأ وهو يلزم ويناغم الرقص النسوي الفاحش.

(٢) يجب أن نقيس الدور الموسيقي أو الغنائي بالإحساس الذي يعقبه عند المستمع؛ هل هو إحساس الشجاعة والشهامة والارتفاع أم هو إحساس الحزن والتوجع والانحطاط؟

(٣) يجب أن ندرس الدور الموسيقي الأوربي وننقل لحنه إلى الأغنية المصرية.

(٤) يجب أن نتوخى تنبيه الوجدان والتعقل وليس العاطفة والشهوة في الدور الغنائي أو الموسيقي.

(٥) لقد ألغينا الرقص المصري لدعارته، فواجبنا إلغاء أغانينا التي لا تزال تلازمه وتتاغمه وتسير في مجراه.

(٦) البعث إلى أوروبا لدراسة الموسيقا ضرورة حتمية ملحة لإصلاح النفس المصرية.

هذه إيماءات وليست مقترحات للإصلاحات.

ويجب أن نذكر— كما قلت — أن النشاط البشري، أيًا كان نوعه، يتخذ لوناً نفسياً معيناً. فالطبيب والمحامي والكاتب والتاجر حين يؤدون أعمالهم يتخذون لوناً نفسياً من هذا الأداء هو لون الشجاعة أو الجبن، والطرب أو الكمد، والتوتر أو التراخي، والأغنية التي نسمعها تعين لنا هذا اللون؛ لأن في نفوسنا أوتارًا تتجاوب مع الألحان التي نسمعها، فإذا كنا نكره أن نُؤدي أعمالنا بفتور وتوجع، وضعف وتكسر، ونعاس وترهل، فإننا يجب أن نتجنب الأغاني التي تؤدي إلى هذه الإحساسات، وأغانينا وألحاننا جميعها في هذا الوقت الحاضر تؤدي إلى هذه الإحساسات.

إنني أستمع أحياناً لأحد الأدوار الموسيقية العالمية من المؤلفين الأوربيين فأحس في نهايته كأن الأكسجين قد زاد في الهواء، فأنا أتنفس وأنتعش وأنبعث إلى حركة أو تفكير، كأن هذا الدور قد زاد حياتي حيوية.

ويحدث العكس عندما أستمع إلى أغنية عربية؛ لأنني أحس كأنها تنادي في نفسي عناصر الضعف والموت والرخاوة والانهيال والحزن، حتى لأقول «أه» في ألم؛ أجل إنه ألم لذيذ، ولكن يجب أن أكرهه؛ لأن هذا الألم يوحى إليّ سائر النهار إحياء الرخاوة والضعف. إن إصلاح النفس المصرية يتوقف على إصلاح الألحان والأغاني.

ولست أقول شيئاً جديداً عندما أقول هذا؛ فإننا نعرف أن شجاعة الجيش تثار بأدوار موسيقية معينة، والأرغن يستعمل في الكنائس الكاثوليكية لإيجاد حال نفسية تساعد على الخشوع والابتهاال.

ولذلك عندما نؤلف لحناً موسيقياً أو أغنية شعبية يجب أن نسأل: ما هي الحال النفسية التي نريدها منهما؟ هل هي حال التخنث والاستخذاء أم حال الإقدام والاجترار؟

وأنا أقرأ تجربة الطبع لهذا الفصل أحسست أنني أهملت جانباً أصيلاً في هذا البحث، هو أن المرأة المصرية بتقاليدها الأنثوية المسرفة هي التي صاغت الرقص والغناء على صورتيهما الزيتيتين الحاضرتين؛ ذلك أن نظرة الرجل للمرأة، من حيث إنها أنثى فقط يجب أن تتخصص لاستمتاعه، هذه النظرة هي التي جعلت الغناء كالرقص جنسياً مسرفاً، بل جنسياً متوحشاً.

فالرجل في أوروبا يعلي إنسانية المرأة على أنثويتها، أما نحن — إلا القليل — فنضع الأنثوية فوق الإنسانية؛ ولذلك ترقص المرأة الأوربية فتثب وترتفع إلى أعلى ويدها تناجيان السماء، ولا تكاد تحس أن لها كفلين؛ إذ هي إنسان قبل أن تكون أنثى، ثم هي في الغناء تغني ورأسها إلى أعلى، فلا نغتمز فيها غنجة، ولكن المرأة المصرية تلفتنا وهي ترقص إلى كفليها وبطنها، وتذكرنا بالجماع، أما رأسها فلا نكاد نحسه، فإذا غنت نقلت إلينا بألحانها هذه الإحساسات أيضاً.

ولو كنا نعامل المرأة على قدم المساواة مع الرجل، ونطالبها بالجد والتعقل والنضج، لكانت هذه الإحساسات — عندئذ — تنتقل إليها، ولكانت — عندئذ — تغني وترقص في شرف وشهامة وقوة كما تفعل أختها الأوربية.

كيف نجعل أطفالنا رجالاً؟

الوسيلة الوحيدة لذلك هي أن نحبههم ونحترمهم منذ الساعة الأولى من ميلادهم. ومعنى ذلك أن نعاملهم بالعدل؛ فالأم التي ترضع ابنها وهو بعد في الأسبوع الأول من عمره، ثم تنزع عنه الثدي قبل أن يشبع إنما تسيء إليه وتجعله غير مطمئن إلى طعامه، والأم التي تنادي طفلها كي يتعدى وهو مشغول بلعبته، ثم تنزعها منه حتى يذهب إلى المائدة، إنما تسلك سلوكاً غير متمدن معه، وهي تغرس في نفسه قلقاً وكرهية، بل ربما عداوة.

فنحن الكبار لا نحب أن يخطف أحد طبق الطعام منا، أو أن يخطف الكتاب أو الجريدة التي نقرؤها، ومع ذلك نحن أقدر على التعقل، ولكن الطفل الذي ينتزع منه الثدي أو تخطف منه اللعبة لا يتعقل، فالأثر فيه أكبر، وهو يجد في خطف الثدي أو اللعبة قلقاً نفسياً؛ وخاصة عندما يتكرر هذا العمل.

وأسوأ ما في الطفل أنه عاطفي وليس عقلياً، فهو يسلك سلوك الحيوان ويحب أن يعامله كما لو كان حيواناً صغيراً، ثم نتدرج به حتى ينمو فنعامله رويداً رويداً بالتعقل. والسنوات الأربع أو الخمس الأولى التي يقضيها الطفل في البيت هي الطراز الذي تبني عليه رجوعه العاطفية بعد ذلك في المجتمع؛ لأن العائلة هي المجتمع الأول الذي يقبل منه الطفل جميع القيم والأوزان بعد ذلك طوال حياته إلا بمجهود كبير، بل كبير جداً ... ولذلك قلما ينجح في تغييرها.

وهذه القيم والأوزان التي تمت عنده بالرجوع العاطفية إنما تثبت؛ لأنه لم يكن يتعقل حتى يرفض بعضها أو يرفضها كلها.

فإذا كان قد تربى في وسط من الخوف؛ حيث يصخب الأب ويزعق ويبطش، فإنه ينشأ على أن الرجال الذين يشبهون أباه مخوفون.

فإذا التقى بأحدهم له المكانة السيكلوجية للأب، كما يكون أحياناً رئيساً، فإنه يخاف ويجزع عند مقابله، وهو يخجل عند لقاء سائر الرجال؛ لأن الخجل درجة من الخوف. وإذا كان هذا الطفل قد ضرب كثيراً في البيت من والديه أو من أخيه الكبير فإنه ينشأ وضيعاً يحس الهوان.

وهو قد ينجح في دروسه لأنه قد تعلم الخضوع، ولكنه لن ينجح في الحياة؛ إذ هو قد حرم الجرأة والإقدام.

ثم هو قد يقع في أمراض نفسية مختلفة؛ لأن الخوف راسخ في نفسه، فهو يخاف كل شيء؛ يخاف الرعد والبرق، ويخاف الخبر الصغير عن أحد الأمراض التي يشتبه في أنه مريض بها، ويخاف الفصل من عمله، ويخاف الخسارة المالية.

والصحة النفسية هي الشجاعة؛ ولذلك يجب أن ندرّب الأطفال ثم الصبيان على الشجاعة.

فمن ناحية علينا أن نعلمهم كيف يسرون في الظلام، علينا ألا نذكر أمامهم كلمة عفريت أو بعبع.

وعلينا أن ندرّبهم على النشاط الرياضي لما فيه من جرأة وإقدام، وعلى الحديث مع الكبار. وعلينا قبل كل شيء ألا نتيح لأنفسنا أن نضربهم أو نصفعهم إلا في حالات الزجر عن المخاطر.

ومعنى هذا أننا نستعمل الزجر لمنع الطفل من الوقوع في الخطر، فنضربه إذا اقترب من النار أو النافذة، مع التفسير الممكن والمصالحة حتى تعود إليه طمأنينته.

ولكن يجب ألا نضربه كي يدرس؛ لأن العقوبة تجدي في الزجر، ولكنها لا تجدي بتاتاً في الإغراء أو التحريض؛ أي إن العقوبة سلبية وليست إيجابية يراد منها: «ألا تفعل». وعلى الأبوين أن يحذرا تنشئة طفلهما على الجبن بما يعاملانه به من قسوة ... ولعله من الحسن أن نذكر الآباء بأن الشذوذ الجنسي السلبي قد ينشأ في الصبي، ثم في الشاب، بسبب الجبن والعجز عن الإصرار على كلمة «لا».

ومعنى هذا أن الشخص الذي يراوده يكون في العادة أكبر منه، فهو يقف منه موقفاً سيكلوجياً يشبه موقف الأب أو الرئيس، والصبي يستجيب له بما تعلم ونشأ عليه من خضوع وذل.

إن أخلاقنا هي مجموعة من العادات والاتجاهات، وليست هذه سوى الرجوع الانعكاسية العاطفية الأولى التي غرست في نفوسنا منذ الطفولة، وقد يكون تفوق التلميذ

كيف نجعل أطفالنا رجالاً؟

في فصله عادة لأنه نشأ في البيت على حب الانتصار، كما قد يكون الفشل عادة لأن الصبي قد تعود منذ الطفولة العجز والاستكانة والرضى بالذل.

والصبي الذي تعود الشجاعة يكرر المحاولة عند الفشل وفيه عناد وصلابة، بل هو يفعل ذلك عندما يكون رجلاً ... والصبي الذي تعود الجبن لضرب أبويه له يستكين للفشل كما يستكين للضرب.

وقد ذكرنا أن الطفل الذي نشأ على الجبن والخوف قد يقع في الشذوذ الجنسي السلبي لأنه تعود الخضوع، والآن تذكر أن الطفل المدلل الذي تعود الحصول على كل ما يطلب قد ينشأ على شذوذ جنسي إيجابي؛ لأنه — لأنانيته — لا يبالي إحساس غيره أو احترام العادات الاجتماعية.

إن الطريق السوي لتربية أبنائنا أن نعاملهم المعاملة النزيهة الشريفة العادلة.

من هم الآباء الذين يسيئون تربية أولادهم؟

هم الأب القاسي الذي يضربهم، والأم التي تدللهم، والأب الذي يترك أم أولاده ويتزوج غيرها ويتركهم هملاً، أو يأخذهم كي يعيشوا مع زوجة أبيهم، حيث يجدون الحرمان أو تمييز إخوتهم لأبيهم عليهم.

وهم أيضاً الآباء الذين يتشاجرون ويتسابون أمام الأطفال، فيعممون في البيت جو الخصومة والشقاق والخوف.

إن البيت هو المجتمع الأول الذي يتعلم فيه الطفل أخلاقه، وتترى فيه عواطفه، فليكن هذا المجتمع راقياً عادلاً، يتماسك بالحب والوفاق، ويعامل الأطفال بالرفق والنزاهة بلا قسوة وبلا تدليل.

ليكن هذا المجتمع معهداً حرّاً تحترم فيه حرية الرأي، وتستجاب فيه المطالب العادلة للصغار قبل الكبار.

هل تورث العبقرية؟

إن للأفكار أزياء كما للثياب، وصحيح أن بعض المفكرين الممتازين يرتفعون على هذه الأزياء ولا يبالون، كما أن بعض النساء الحكيمات يرتفعن عن حماقة التغيرات المتوالية في الأزياء. ولكن هؤلاء قلة، والانحراف عن الزي المألوف في التفكير أو العيش يلقي الاستهجان البالغ من العامة، بل من الخاصة أحياناً.

وقد جاء وقت كان فيه الإيمان بالوراثة زياً تفكيرياً مألوفاً؛ فأبناء الأذكاء يجب أن يكونوا أذكاء، وأبناء المغفلين يجب أن يكونوا مغفلين.

ولا يمكن أن يعيش باطل بين الجمهور إلا إذا كان على شيء ولو قليل من الحق، وقد كان هذا القول بالوراثة على شيء من الحق، ولكنه لم يكن كل الحق.

ذلك أن أثر الوراثة لا يمكن أن ينكر في الصفات الجسمية بين الآباء والأبناء، كما نرى في تقاسيم الوجه وفي طول القامة وقصرها، وفي الاستعداد لبعض الأمراض، كذلك نرى هذا الأثر واضحاً في بعض الاتجاهات النفسية.

ولكن يجب أن نصر هنا على كلمة «بعض»؛ لأن جميع الأدلة تثبت أن الاختلاف بين الأفراد في النجاح والخيبة، وفي المكانة الاجتماعية، والاتجاه الثقافي، وفي الأخلاق من حيث التزام الفصائل والجنوح إلى الرذائل، كل هذا إنما يرجع في أكثر الحالات — وليس في قليل منها — إلى الوسط لا إلى الوراثة.

وهنا نذكر جالتون صاحب كتاب «العبقرية الوراثية»، فإن هذا الرجل هو ابن خالة داروين صاحب نظرية التطور، وقد أخرج داروين كتابه في أصل الأنواع سنة ١٨٥٩، وكانت أهم قاعدة أو سنة طبيعية بنى عليها نظريته هي «تنازع البقاء»؛ أي إن القوي في الطبيعة يغلب الضعيف، فيبقى القوي ويتناسل ويموت الضعيف وينقرض، ولم يلتفت

داروين إلى الوسط، وقد اعترف بعد ذلك بأنه أهمل هذه الناحية من بحثه في أسباب التطور.

وقد انتقل الإيمان بالوراثة من داروين إلى لومبروزو العالم الإيطالي الذي قال بأن الإجرام وراثي، وأن للمجرمين سمات معينة في الوجه والكف والذراعين، وما دام المجرم قد ولد بهذه السمات فلا صلاح له؛ إذ إنه قد ورثها، فهو مجرم بالوراثة.

ونجد مثل هذا الإيمان عند الأديب الكبير هنريك أبسن في درامته «الأشباح»، حين يخرج لنا على المسرح شاباً عاهراً يهجم على الخادمة، وهو — أي المؤلف — يعزو عهره إلى أن أباه كان أيضاً عاهراً، وأن أمه حاولت التخلص منه بالطلاق، ولكن القسيس أبى عليها ذلك، ونصح لها بالإبقاء على الحياة الزوجية. وكان هذا القسيس مخطئاً كما يتضح من ثمرة الزواج، وهي ثمرة فاسدة تمثلت في هذا الشاب العاهر.

إلى هذا الحد وصل الإيمان بالوراثة: ابن المجرم مجرم بالطبع، وابن السكير الزاني سكير زانٍ بالطبع، وكأن التربية والتعليم ومصادفات العيش وعبر الحوادث وحاجات الفقير وسلطة الثري والفرصة المتاحة والحرمان من الاستماع، كل هذا لا قيمة له في تغيير الأفراد وزيادة الذكاء أو نقصه.

بل ماذا أقول؟ إن زيادة الذكاء كانت إلى وقت قريب مشكلة من المشكلات السيكولوجية، حتى إن نحو مئة من علماء التربية في الولايات المتحدة، ومثلهم من أبناء الأقطار الأخرى، كانوا يبحثونها ويناقشونها في حدة، بل في خصومة؛ ففريق يقول بأن الذكاء موروث لا يزيد، وآخرون يقولون بل هو يزيد قليلاً بالتربية الحسنة والوسط الملائم.

ثم جاءت السيكولوجية الجديدة تضرب بالوراثة عرض الحائط، وتقول إن الدافع إلى الإجرام هو مركبات (أي: عقد نفسية) أوجدها وسط معين، وأن الجريمة هي ثمرة الوسط لا غير.

ولكن هذا الإيمان بالوراثة وجد ظروفًا قوية تدعو إلى التعلق به، بل الاعتماد عليه، فإن الإمبراطورية البريطانية لم تكن لتعيش لولا هذا الإيمان بالوراثة «نحن الإنجليز ممتازون بالذكاء والكفاية والأخلاق، أما الشعوب الأخرى التي نستعمرها؛ مثل الهنود والمصريين والإفريقيين والجاويين والصينيين، فمنحطة ناقصة في الذكاء والكفاية والأخلاق، ولذلك نحن نستعمرها رحمة بها، وهذا الاستعمار هو عبء الرجل الأبيض، يحمله على ظهره كي ينشر الحضارة بين المتوحشين من السود والسمر والصفرة، وأولئك الذين يكافحون

الاستعمار جهلة لا يدرون الفروق الوراثية بين الشعب الإنجليزي المجيد وبين الشعوب الأخرى الدنيئة».

وبعد، فرجائي إلى القارئ بعد كل هذا الذي كتبت ألا يعتقد أنني لا أؤمن بالوراثة، أو أنني أنكرها، لكنني وصلت إلى إيمان جديد، وهو أن التفاوت في الكفايات بين الناس بالوراثة ليس كبير الشأن، وأن الذكاء يمكن تربيته وتنميته، وأن للوسط أثرًا كبيرًا في تعيين الاتجاه الأخلاقي والمزاج النفسي والكفاية الحرفية، بل في درجة الذكاء.

يجب أن نتكاسل!

كنا نعد الجد والاجتهاد والمثابرة والنشاط وسائر ما يتصل بهذه الكلمات من المعاني فضائل يجب أن نلقنها الصبيان والشبان، وهي كذلك إذا التزمنا فيها حدود الاعتدال، أما إذا أسرفنا وبالغنا فإننا نحيل هذه الفضائل إلى رذائل؛ لأنها أحدثت من المؤثرات النفسية عند كثير من أولئك «المجدين» المجهودين ما لا يطيقونه، فهم في مرض وقلق يحتاجون إلى العلاج منهما.

وكلمات الجد والاجتهاد وما شابههما إنما هي تراث قديم نشأ في بيئة زراعية كانت تحث على هذه الفضائل لأنها كانت تحتاج إليها؛ لأن التراخي والتكاسل من الأخلاق الريفية، ولكننا نعيش هذه الأيام في بيئة المدن، حيث السرعة بل الهرولة، وحيث المواعيد التي تعين بالدقائق قبل الساعات، وحيث السهر لتأدية العمل المتأخر من النهار، بل حيث الهموم والاهتمامات المالية والاجتماعية التي لا يعرفها الريفيون، وكل هذه الأحوال تجعلنا متوترين، بل أحياناً متشنجين. ولذلك يصح علينا القول بأننا لا نعيش هذه الأيام بعضلاتنا قدر ما نعيش بأعصابنا.

ومن هنا هذا القلق الذي يعمنا جميعاً؛ فإننا نتحمل أعباء كثيرة من الواجبات الاجتماعية التي تجر في أثرها تبعات ثقيلة لا تتركنا في راحة حتى عندما ننكفئ إلى السرير للنوم، بل إننا كثيراً ما نحلم ونحن نيام بهموم النهار واهتمامات اليقظة، وأحياناً عندما أجد أتومبيلاً في الشارع، قد دار موطره فجعله يتذبذب وهو واقف مكانه، أحس أن في هذا المنظر فتنة سيكلوجية، بل رمزاً اجتماعياً، هو أن كثيراً من الناس يتذبذبون بالقلق ويتوترون ويتشنجون مثل هذا الأتومبيل، على الرغم مما يبدو عليهم من سكينه وجمود.

ولذلك نحن في حاجة إلى الكسل والاسترخاء في ظروفنا الحاضرة أكثر مما نحن في حاجة إلى الجد والنشاط، وعلينا أن لا ننسى أن التفكير المثمر الناجح يحتاج إلى حضانة يرقد فيها المخ ولا يثار بمجهود، وهذه الحضانة هي في النهاية كسل واسترخاء يتيحان للذهن تقلب الموضوع على مهل، وقد تبلغ هذه الحضانة أياماً أو شهوراً، وليس هناك عبقرى يبتكر فكرة أو يهيئ مشروعاً إلا وهو يحتاج إلى هذا الكسل.

بل يحدث أن يكون المرض الذي يلزمنا السرير شهراً أو شهرين، بعد عملية جراحية — مثلاً — تضطرننا إلى الاعتكاف ووقف النشاط وفقاً تاماً، يحدث في مثل هذه الحالات أن يجد المريض فترة من الكسل والاسترخاء والتثاؤب تحمله على مراجعة ماضيه، والتفكير في مستقبله، ومراجعة أخلاقه وتصرفاته، وعندئذ يهب في نهاية هذه الفترة وهو ليس معافى فقط، بل يحمل في صدره برنامجاً جديداً في التفكير، بحيث إننا نجد فيه شخصاً آخر، غير ذلك الشخص الذي كنا نعرفه من قبل، وعندئذ يكون مثل هذا المرض نعمة في صورة نقمة، وكثير منا من أولئك المسوقين في تيار المجتمع الذاهلين عن الحقائق يحتاجون إلى مثل هذا المرض الذي ينبههم ويعيد إليهم القيم والأوزان الصحيحة للحياة وهم مسترخون كاسلون في السرير.

إن القلق والهم يتسلطان علينا نحن سكان المدن، وقد فقدنا سكينه الريفي الذي قنع بمعاشه واستمتع بالطبيعة، واقتصرت همومه على زيادة محصوله وصحة ماشيته، فنحن نقلق في الصباح عندما نقرأ أخبار العالم المفزعة في الجريدة، بل نحن نقرأ وعيننا على الساعة لئلا نتأخر عن ميعاد نكره اللقاء المنتظر فيه، ونحن نسمع عن الغلاء فننتهد ونذكر مصروفات الأولاد وأثمان اللحوم والبقول والأقمشة، ونقلق عندما نفكر في المستقبل المجهول، وكل هذا يجعلنا — كما قلت — نتذبذب كالأتومبيل الذي يدور موطره وهو واقف في مكانه.

ولهذا يجب أن نعد الكسل من الفضائل التي تتطلبها ظروفنا الحاضرة؛ أي: يجب أن ننكفئ إلى سريرنا ونتثاءب ونسترخي، وأن ننفض همومنا، وإذا وجدنا أننا عاجزون عن نفضها فعلياً — عندئذ — أن نقصد إلى الخلاء حيث الربيع في نضرتة الزاهية، أو الشتاء في برودته المنعشة، فننشط ونجري ونلعب، وقلّ أن يبقى لأعصابنا هذا التوتر المضني بعد هذا اللعب والمرح في الحقول النائية عن المدينة.

وفي الجمعة أو الأحد يجب أن نتعلم كيف نلهو ونلعب بدلاً من أن نقضي هذا اليوم ونحن نركد على القهوة أو نلعب الورق أو غيره من ألعاب الحظ التي نقتل بها الوقت

يجب أن نتكاسل!

دون أن نصيب منها راحة أو استرخاء؛ لأن هذه الألعاب تزيد القلق والانتباه بدلاً من أن تنقصهما، كما أن الركود على القهوة ليس راحة وإنما هو اهتمام صامت.

ومن أنواع اللهو المنعش الذي تسترخي به النفس صيد السمك بالشخص، فإن هذا اللهو كثير في أوروبا، ولكنه قليل عندنا، مع أن في النيل مساحة عظيمة لممارسته، وهو لهو الساسة والأدباء ورجال الأعمال وجميع من يعملون في الرياسة والإدارة ممن تجابهم الصعوبات والمشقات، وهؤلاء يجدون الاسترخاء، وأيضاً يجدون الحضانة لمشروعاتهم واختراعاتهم، وهم إلى الماء ينتظرون السمك الذي يعرض دودة الشخص.

والاسترخاء ضروري للتفكير المثمر، فإن أرخميدس لم يصل إلى اكتشافه المعروف إلا وقت الاسترخاء حين كان في الحمام يلعب بالماء، وقد هب وهو يصيح أوريكا، أوريكا (وجدتها، ووجدتها).

وقد عمد هوهلر إلى تجربة توضح لنا ضرر التوترات النفسية للتفكير، فإنه وضع أمام قرد في قفص قطعة من الحلوى تحت أنفه ولكنها خارج القفص، ثم فتح الباب للقرد كي يخرج ويأكلها، ولكن لأن القرد كان قد اشتهى الحلوى وتوترت نفسه بالهم، لم يستطع الالتفات للباب ولم يخرج؛ أي: لم يفكر.

وكذلك حدث حين وضع خارج القفص موزة ووضع بين يدي القرد عصي منفصلة، ولكنها تتداخل فتؤلف عصا طويلة تبلغ الموزة، وحاول القرد أن يصل إلى الموزة بالعصا فلم يبلغها، ولم يفكر في مداخلة العصي حتى تطول فيبلغها ويجرها؛ لأن الجوع قد أحدث في نفسه توتراً يمنع التفكير، فلما يئس وتركها إلى ناحية أخرى من القفص هدأ قليلاً، وذهب عنه توتر الجوع، وعندئذ هب إلى العصي فجمعها وداخلها حتى صارت عصا طويلة استطاع أن يبلغ بها الموزة ويجرها، ومن هنا قيمة الاسترخاء وضرر التوتر.

وخلاصة القول أننا يجب أن نتند في عيشنا ولا نهرول، وأن نعرف للكسل قيمته كما نعرف حدوداً للجهد والاجتهاد، والكسل قيمته كما نعرف حدوداً للجهد والاجتهاد، والكسل بعد ذلك قناعة مريحة، أما الجهد والاجتهاد فهما طمع، وأحياناً جشع مقلق.

التفكير السليم

من أحسن ما قرأت لداروين ما كتب عن نفسه بقلمه، فإنه يذكر — مثلاً — أنه اتبع قاعدة لم يخالفها، هي تدوين جميع المشاهدات التي مرت به، والتي تكون ضد آرائه، أو تخالف استنتاجاته، وكان يحتفظ بها كي يراجع نفسه وينقح أو يغير أو يصحح ما يكون قد وصل إليه.

والعادة المألوفة عند الكاتب العادي أنه يجمع من المشاهدات ما يؤيد رأيه أو نظريته، بل إن العين والعقل ليشيحان عن كل شيء يخالف عقائدنا في آرائنا واستعراضاتنا، ولكن الحذر العلمي عند داروين كان يحمله على أن يدون الحقائق أو المشاهدات التي تناقض فروضه ونظرياته.

وبهذا الحذر استطاع أن يخرج مؤلفاته التي غيرت وجه أوروبا الثقافي.

وما أجدنا جميعاً بأن نأخذ بهذه القاعدة التي أخذ بها داروين نفسه، فنصح آراءنا، ونبدد أوهامنا المتسلطة في معاملتنا الخاصة لمن نختلط بهم، وفي تفكيرنا العام في السياسة والاقتصاد والأخلاق.

فقد نشأ في ظروفنا العائلية على أن أحد الأشخاص الذين نعرفهم هو رجل سيئ، وينمو هذا الرأي ويتجمد كأنه عقيدة، فإذا تأملنا سلوكه وأحصينا أعماله وجدنا العكس، وقد ننوهم أسوأ الأوهام عن زميل لنا في المكتب أو المصنع؛ لأننا قد تركنا القيل والقال يتسلطان علينا، ولكن لعل ما قيل عنه كان افتراء، ولعل القليل من معاينة أخلاقه يعيد إلينا اتزاننا كما يعيد إلينا مكانته الحققة.

ثم نحن نعيش بالكثير من موروث العقائد التي غرست فينا الحقد على بعض الطوائف أو بعض المذاهب أو الأديان، مع أن القليل من التأمل والمعاينة — على أسلوب

داروين — قد يغير هذه العقائد الموروثة، ويجعلنا نقف من هذه الطوائف والأديان أو المذاهب موقف الحب بدلاً من موقف البغض.

وهكذا الشأن في السياسة والأخلاق، فإني كثيراً ما أسمع — مثلاً — عن الاستهتار في المرأة الأوربية، وأنها لا تعرف العفة التي نعرفها والشرف الذي نمارسه، وكأن هؤلاء الناعين عليها أخلاقها ينسون أنها هي الأم التي تربي شباباً يتسلطون على العالم كله بذكائهم ورجولتهم، وأن كل ما نزعمه من استهتار في أخلاقها لا يزيد على القول بأن أخلاقها هذه تخالف أخلاق فتياتنا ونسائنا، وأن الأخلاق عادات لا أكثر كما وصفها أرسطو طاليس، وأن هناك مجالاً للبحث والمقارنة عن الأخلاق الفاضلة للمرأة هل هي ما نجد في مصر أو ما نجد في أوربا؟

يجب أن تكون عقولنا مفتوحة نتقبل الرأي الذي ينقض رأينا، والعقيدة التي تنقض عقيدتنا، ونبحث الجميع بالمنطق العلمي حتى نأخذ بالأحسن والأصح، وبذلك نربي أنفسنا كما ربي داروين نفسه.

أطفال في سن الخمسين

أعظم ما يدل على أن الإنسان ناضج، وأنه قد بلغ سن الرشد النفسي، أن يكون قد تخلص من عادات الطفولة السيئة، وأنه قد مرّن على التغير بحيث يرضى بأن يتكيف للوسط الجديد، فيبدل عاداته الذهنية والنفسية والجسمية عادات أخرى تتفق ومصالحته ومصحة المجتمع الذي يعيش فيه.

ونحن نتسامح مع أطفالنا في رجوع واستجابات نفسية كثيرة؛ لأننا نعتقد أنهم عندما يبلغون الشباب سيقبلون عنها بباعث من أنفسهم، وهذا هو ما يحدث بالفعل، ولكن هناك من التسامح المسرف ما يجعل هذه الرجوع والاستجابات ثابتة، وذلك — مثلاً — حين ندلل الطفل فلا نزره بتاتاً عن أي خطأ يقع منه، وحين ينشأ فلا نجد من يزره من أب أو معلم أو زميل أو رئيس، فنثبت فيه العادات الطفولية، ويندفع المسكين بعواطف قهرية لا يعرف كيف يضبطها حتى حين بلغ العشرين أو الخمسين من العمر. تصور طفلاً تركه أبواه يعاند وهو في الثانية أو الثالثة من العمر، ويصر على عناده بشأن هذا اللون من الطعام أو تلك القطعة من الحلوى، أو على أن يخرج من البيت أو يبقى فيه، فإن هذا التصرف لا يلفتنا كثيراً؛ لأننا نعتقد أن عادات الطفولة هذه سوف تتغير، ولكننا نفاجاً بعد سبع أو ثماني سنوات حين نجد أن هذا الطفل يعصي أبويه في الذهاب إلى المدرسة، ويصر على الإضراب عن الدراسة إلا إذا اشترى له حذاءً جديداً أو بذلة جديدة، ثم هو قد يبلغ الرجولة فإذا خاصم أحداً استحالت خصومته إلى عناد بحيث يقضي كل أيامه وهو يجتر هذه الخصومة ويتحدث عنها، ويتورط في قضايا بسببها.

أو تصور — مثلاً — هذا الطراز الآخر، فقد عرفت رجلاً يبلغ الخمسين ومع ذلك عمد في يوم شم النسيم الماضي إلى دعوة سبعة أو ثمانية من أصدقائه كي يقضوا معه هذا العيد في قصف وطرب، فلما كان صباح هذا اليوم بكر إليه الأصدقاء، ولكن ما كان أعظم

دهشتهم حين وجدوا باب مسكنه مقفلاً بقفل ضخم والبيت فارغ، فقد سافر داعيهم هو وعائلته إلى بلدة أخرى.

وهذه النكتة العملية يضحك منها طفل، وهي تتسق وألعابه ونكاته، ولكن الرجل الناضج يشتمئز من هذا السلوك؛ لأن كلمة الوعد هي كلمة الشرف، ولأنه لا يرضى لأصدقائه هذا الفوت لعيد سنوي جميل.

وهذا الطفل كان أيام طفولته يؤدي هذه الألعاب فيجد التسامح المسرف، فلا نصيحة ولا توبيخ ولا عقوبة، وها هو ذا قد شب فبقي فيه هذا المزاج السخيف يؤدي به أصدقاءه حتى وهو في الخمسين من عمره.

وشبيه بهذا السلوك ما يفعله طفل أو طفلة في سن الثلاثين أو الأربعين حين يرسل إليك تلغرافاً يوم أول أبريل عن نعي فلان من أصدقائك أو أقاربك.

وكلنا يعرف تلك الشخصية الأثانية، رجل في الخمسين أو الستين من العمر، لا يزال ينظر إلى الدنيا وإلى زملائه وأعضاء عائلته وإلى وطنه بتلك الأثانية الاقتنائية؛ إذ يريد أن يقتني ويخطف وينهب، وشعاره في الحياة: أنا وحدي.

وعندما نتأمل هذا الإنسان نجد أنه أذى نفسه أذى عظيماً، وأن عواطفه جفت، فلست تجد له صديقاً، بل لست تجد له من أسرته من يحب أن يجالسه فضلاً عن أن يصادقه؛ إذ هو قد برهن في تصرفاته المختلفة على أنه خلو من العطف والحنان والشرف؛ لأن جميع هذه الفضائل اجتماعية وهو في صميمه انفرادي أناني، بل إنه يحتقر الثقافة ويأبى أن ينفق قروشاً على شراء كتاب؛ لأن الثقافة في صميمها اجتماعية، وإذا لم يكن الإنسان مهتماً، بل مهموماً بالمجتمع، فإنه لا يثقف ذهنه ولا يبالي كيف كان يفكر الفراغة أو الإغريق، أو ماذا يكتب الألمان والإنجليز في عصرنا.

أعرف واحداً من هؤلاء الأثانيين ... رأيت يوم الفجيعة، يوم الفضيعة، يوم دنشواي يضحك، وهو يقرأ وصف الجلد والشنق للمساكين الذين سطا عليهم الاستعمار البريطاني، وذلك في سنة ١٩٠٦.

وقد بقي بعد ذلك يضحك ويسخر من الحركات الوطنية، ويصف تشرشل الاستعماري بأنه رجل عظيم، بل أعظم رجل في العالم.

ومعظم ما تراه من شقاء في العلاقات يرجع إلى أن الابن البكر قد دُلل كثيراً، وتُرك لأثانيته بلا تنقيح أو إصلاح، فنشأ اقتنائياً صائلاً يخطف ويسرق أمه وأخوته كما لو كان طفلاً في الثالثة من العمر. وأحياناً أتأمل هؤلاء الأطفال الكبار في تصرفاتهم الصغيرة على

المائدة أو وقت المخالفة في الحديث، فأجد أخلاق الأطفال واضحة، فهم يأكلون بنهم يشبه الخطف، وهم يصخبون في الجدال حتى يضربوا الأرض بأقدامهم، وهم يضحكون عندما يسمعون بنكبة وقعت بأحد الناس، كأن النكبة نكتة، وهم يعيرون المعيوهين بعاهااتهم، فالأحول عندهم «أعور»، والأصم أو من به صمم أطرش ... إلخ.

وقلّ أن ينجح الأناي في الحياة؛ لأنه في الأغلب يتطوح في أنانيته الاقتنائية إلى السرقة التي تسلمه إلى السجن، والارتقاء الذاتي يحتاج إلى صفات اجتماعية كثيرة؛ لأننا في النهاية لا نرتقي لأنفسنا وإنما نرتقي للمجتمع؛ إذ نحن ننشد من هذا الارتقاء شرفاً ووجاهة ومقاماً، وهذه الغايات تثير في أنفسنا عواطف اجتماعية حسنة.

وكلنا إلى حد ما أطفال ولو بلغنا السبعين من العمر، فإننا حين نغضب ونثور تطفح أفواهنا على الرغم منا بكلمات «يابن الكلب» وأمثال ذلك، وهذه الكلمات من آثار الطفولة، بل إن عواطف الطفولة تثار أيضاً؛ لأننا في مثل هذه الظروف قد نهب إلى ضرب الخصم أو ركله.

وهناك الكاتب المهاتر الذي تستخدمه الأحزاب في سب خصومها وهو يكتب كلمات مثل «يا ابن الكلب» ولكن بلغة فصحي، ويجد من الحزب الذي يستخدمه أعظم المكافآت؛ لأن هذا الحزب يعالج السياسة بأسلوب الأطفال، وقد رأينا أمثلة عديدة على ذلك في مصر. بل هناك العلماء الذين يخترعون القنبلة الذرية أو الهيدروجينية لمحو أمة كاملة وهم فرحون بالأطفال بقنبلتهم أو لعبتهم، إذ هي صاروخ عظيم يقعقع، ولا يبالبون قتل الأطفال والأمهات والمسنين والشباب والفتيات؛ لأنهم — أي: هؤلاء العلماء — لم ينضجوا. أيها الآباء، لا تتركوا الأناية تغمر أطفالكم، ولا تتيحوا لهم أن يكونوا أطفالاً في سن الخمسين.

الأسباب السيكولوجية للجريمة

حوالي سنة ١٩٠٩ كنت في باريس، وكانت قد وقعت جريمة فظيعة ارتاع لها الجمهور واشتغلت بها الصحف، هي أن أحد المجرمين فسق بصبية لم تتجاوز العاشرة، ثم قتلها، أو هو قتلها وفسق بها بعد ذلك، وحكمت عليه المحكمة بالإعدام، ولكن رئيس الجمهورية خفف العقوبة إلى السجن المؤبد؛ لأنه كان يكره عقوبة الإعدام كمبدأ عام.

وهاج الرأي العام وألح في ضرورة الإعدام، ومضت أسابيع وليس للجرائد من موضوع سوى هذا المجرم وهذه الجريمة، وفي ذلك الوقت كان لومبروزو العالم الإيطالي يستمتع بشهرة عالمية، وكان يبحث الجريمة والعبقرية والجنون، ويعللها جميعها بالوراثة، وبعلامات معينة في الرأس والوجه والقامة واليد ... إلخ.

وكان الإيمان بالوراثة على أقواه، وكأن كل إنسان كان مقدراً له قبل أن يولد أن يكون فاضلاً أو رذلاً، نكياً أو غيبياً، مجرمًا أو مستقيماً بمحض الوراثة، وأن الوسط لا قيمة له بتاتاً في التوجيه الأخلاقي أو التغيير الوراثي.

وعمد أحد الفرنسيين إلى استشارة لومبروزو بشأن هذا المجرم الفاسق الذي هاج الرأي العام الفرنسي، وأرسل إلى هذا العالم الإيطالي صورة يد قال إنها يد المجرم، وطلب من لومبروزو أن يوضح العلامات التي تدل على إجرامه، ولم يتأخر لومبروزو في الإجابة على هذا الطلب؛ فإنه بعث برده وبه بيان واضح يدل على أن هذه اليد هي يد مجرم فظيع يتسم بعلامات الإجرام الوراثي!

ولما حصل هذا الفرنسي على هذا الرد أرسله إلى الجرائد التي نشرت صورة اليد وبيان لومبروزو، ولكن هذا الفرنسي كان ماكراً خبيثاً، فإنه لم يكن قد أرسل صورة يد هذا المجرم، وإنما كانت الصورة ليد الكاتب العظيم فكتور هيجو.

وقد خف الإيمان بالوراثة في السنين الأخيرة وضعف دعاة القدر الوراثي؛ لأن الوراثة «قدر» يقدر لنا قبل أن نولد.

وكان أعظم من دعا إلى الوراثة عالم ألماني يدعى فيسمان، فإنه ألف كتابًا حوالي سنة ١٨٩٥ أسماه «الجسيم الجرثومي»، قال فيه إن خلايا التناسل التي تعيش في بيضتي المرأة وخصيتي الرجل إنما تعيش مستقلة عن جسم المرأة وجسم الرجل، فهي تغتذي من الدم حقًا، ولكنها لا تتأثر بما يحدث للمرأة أو للرجل في حياتيهما.

وعلى الرغم من أن هذا القول يخالف البديهيات في المنطق، فإن العالم الأوربي آمن به؛ لأن فيسمان كان من العلماء التجريبيين الذين يعملون بالمكركسكوب ويعتمدون على المشاهدة؛ ولذلك ساد هذا الرأي، وأصبحت الوراثة قدرًا مقدورًا، فأنا وأنت نولد بمقادير معينة لنا من الذكاء ومتانة القلب وطول العمر والاتجاه الإجرامي والاستقامة الأخلاقية، ومهما فعلنا واجتهدنا فإننا لن نتغير.

وإذن يعد الإجرام وراثة أو صفات وراثية لا يمكن تغييرها، وما دام لا يمكن تغييرها فليس هناك أي معنى لأن نصلح المجرم أو نعوده عادات اجتماعية حسنة؛ لأن وراثته سوف تنزع به فيعود إلى الإجرام وينسى ما تعلمه وتعوده.

ولم يصب عالم البحث، بل عالم الخير والشرف، بمثل ما أصيب به من هذا المذهب الجامد الذي كان يجعل الدعوة إلى الرقي أو الإصلاح عاطلة أو عقيمة.

وكانت نظرية دراوين باعًا قويًا على القول بأن الجريمة إنما هي ردة؛ أي: ارتداد إلى السلف من أولئك الوحوش التي كنا ننتمي إليها قبل ملايين السنين؛ فالمجرم إنما يمثل سلفًا عاش قبل مليون سنة، حين كان الفتك والاغتصاب والقتل من الطبيعة الحيوانية التي لا تصلح عندما تثب في أحد المجرمين في عصرنا.

الوراثة التي نرثها من آبائنا وأسلافنا أم الوسط الذي نعيش فيه؟ أيها يعمل لتكويننا المزاجي الأخلاقي؟

هذا هو السؤال الذي يحتاج إلى الإجابة عليه جميع المشتغلين بالإصلاح الاجتماعي؛ إذ لو كانت الوراثة هي كل شيء فليست هناك أية منفعة من الإصلاحات الاجتماعية، أما إذا كان الوسط قادرًا على تغيير الوراثة؛ أي: قادرًا على أن يجعل الحي يتطور ويرقى، فإن الدعوة إلى إصلاح المجرم أو تعليم الفضائل لأفراد الشعب تجد ما يبررها.

والإجابة التي يجمع عليها جميع الباحثين في عصرنا تختلف كل الاختلاف مما كان يذهب إليه لومبروزو، وهي أن الإجرام اجتماعي وليس وراثيًا.

وصحيح أن بين بعض المجرمين تشوهات موروثية في الوجه أو الجسم، ولكن قيمة هذه التشوهات اجتماعية، بمعنى أنها تجلب لحاملها الاحتقار أو الكراهة فيحدث هذا رجحاً (رد فعل) سيئاً في نفسه يثير الغيظ الذي قد يؤدي إلى الجريمة، ولو أنه لم يكن قد وجد هذا الاحتقار أو هذه الكراهة لما أجرم.

وقد أنارتنا السيكولوجية الحديثة بشأن الإجرام عن السلوك البشري، من حيث اتجاهها إلى درس السنين الأربع أو الخمس الأولى من العمر أيام الطفولة، حين ينطبع الطفل بكل ما يرى أو يسمع أو يتعود؛ ففي هذه السنين ينشأ المجرم لأنه تعود استجابات ورجوعاً معينة من أبويه أو أعضاء عائلته؛ كالعناد لأنه كان مدلاً، أو كالمكر لأنه كان يعيش مع زوجة أبيه، فكان يحتاج إلى الخبث والاحتتيال.

فالمجرم في هذا النظر هو شخص قد بلغ العشرين أو الأربعين من العمر الزمني، ولكنه قد وقف عند الاستجابات السيكولوجية لطفل في سن الخامسة، يغضب ويعاند ويبطش ويحطم ويسرق ويحتال ويكره تأدية الواجبات.

وقد كان ديرو يقول إن جميع الأطفال مجرمون، ولكن يمنعهم من الإجرام عجزهم عن التنفيذ، ونستطيع أن نقول نحن: إن جميع المجرمين أطفال من حيث التزامهم أساليب الأطفال في السلوك؛ لأن قوتهم قوة الرجال البالغين في حين دوافعهم هي دوافع الأطفال، فكفاحة الجريمة يتطلب حماية الأطفال من الوسط السيئ أيام الطفولة وتدريبهم، بحيث يأخذون في النمو حتى ينخلعوا من أساليب الطفولة.

ولكن من الإسراف أن نعزو جميع الجرائم إلى الاستجابات والرجوع أيام الطفولة، فإن هناك ظروفًا اجتماعية أخرى تؤدي إلى الجريمة، والبرهان على ذلك أن معظم المجرمين ينتسبون إلى طبقة الفقراء، وليس هؤلاء على اختلاف وراثي أو عائلي من أبناء الطبقة الثرية، وإجرامهم لذلك يعزى في كثير من الحالات إلى فقرهم. فإذا نظرنا إلى العدوان — مثلاً — باعتباره جريمة مقصودة لذاتها، وليس وسيلة للسرقة، وجدنا أن له أسباباً سيكولوجية أخرى غير عادات الطفولة؛ فإن الخائف القلق يعمد إلى العدوان، إذ يجد فيه وسيلة إلى الاطمئنان؛ كأن المنطق النفسي يقول: إذا أنا هزمت الخصم بالضرب فإني أطمئن.

اعتبر الزوج الذي يحس نقصاً جنسياً فيضرب زوجته، كأنه يريد أن يطمئن على سلطته بإيذاء زوجته؛ لأن هذا الإيذاء يخفي عجزه الجنسي، ويوهمه القوة من حيث يحس الضعف.

أو اعتبر الأب المخرج، الذي أخرج فقره وعجزه عن أن يعول أبناءه، فإنه يضربهم؛ لأن الضرب هنا تفريج للحنق القائم في نفسه.
وخيبة التلميذ في الامتحان تجعله عدوانياً في البيت.
بل أحياناً يؤدي الحرج إلى الإيذاء النفسي؛ فالرجل ينتحر لأنه مخرج بإفلاس أو بفضيحة، وهو إذا لم يقتل أو يؤدي نفسه فقد يقتل أو يؤدي غيره.

الشباب عقيدة

من أحسن ما قرأت لأندريه جيد قوله إن الشباب ليس فترة عابرة من العمر، تقع بين العشرين والأربعين مثلاً، ثم تزول، وإنما هو عقيدة يجب أن نؤمن بها ونعمل بمقتضاها حتى ولو بلغنا التسعين.

إن الشباب يمتاز بالحماسة، واللدونة الذهنية، والرغبة في الاختبارات الجديدة، والنشاط، والسعي، والمغامرة، والحب.

وكل هذه الصفات يجب أن نعتقد نحن الشيوخ في قيمتها العالية، وأن نمارسها لأن الشباب عقيدة، وقد كان أندريه جيد شاباً حين شرع يدرس الإنجليزية واللاتينية وهو في الثامنة والسبعين.

ولقد لقيت من الشبان من مارسوا الشيخوخة، وكأنها كانت عقيدتهم، وذلك بالركود والتجمد وتعود العادات العتيقة التي يمارسها الهرمون والمهدمون؛ إذ كانوا يقضون وقتهم قعوداً بلا نشاط على كراسي المقاهي، أو كانوا يطلقون عيونهم في الفضاء ذاهلين كأنهم نيام، أو كانوا يرفضون الاشتباك في المناقشات الذهنية لأنها تتعبهم.

وإزاء هؤلاء رأيت بل عرفت شيوخاً آمنوا بعقيدة الشباب، فهم يبكرون في الصباح، ويقرءون ويستمتعون بالتجوال والسياحة، ويشتركون في المعارك الذهنية العالية، ويدرسون، بل ويتطورون، تحس حين تقعد إلى أحدهم أنه ناهض يستطلع ويستفهم ويستزيد من الاختبارات كي يستقطن منها حكمة العيش ولذة الذهن والجسم، وهو متفائل يتحدث بلهجة المنتصر الشجاع الذي لا يخشى المستقبل.

والشيخوخة الناهضة هي منظر جميل نحب جميعاً أن نمتع عيوننا برؤيتها، ونستمع إلى رواية اختباراتها: شيخ في الثمانين أو التسعين قد احتفظ بنحافته فلم يستكرش ولم يترهل، وقد عني بنظافة جسمه وعقله، فهو لا يؤمن بالغيبيات الخرافية، وهو إلى ذلك

مثقّف يقرأ الصحف ويشترى الكتب ويزور أوروبا والسودان، ويهتم بالتغيرات المتوالية في عصره، مثل هذا الرجل هو تحفة بشرية عالية؛ لأنه جعل الشباب عقيدته. وكما نعتقد نكون، فإذا اعتقدنا أننا شباب عشنا بإحساسنا وأفكارنا ونظرتنا في جو الشباب بما توحى إلينا فكرته، وبالعادة والاتجاهات التي يبعثها فينا. حبذا الشباب نؤمن به إلى يوم وفاتنا، ونعمل بجميع مقتضياته.

جريمة في الظلام

ليس فيما سنرويهِ هنا شيء من الخيال، فإن هذه الجريمة التي سنذكر تفاصيلها قد وقعت، وما سيقرّه القارئ هنا من تفاصيل قد استقاها الكاتب من المجرم الذي ارتكبها، وما كنا لنحيز لأنفسنا ذكرها لولا أنه قد مات منذ سنوات، ونحن لا نذكر هذه الجريمة بشيء من التفصيل إلا لنستخرج العبرة السيكولوجية في تربية الآباء للأبناء.

نشأ «محمود» على العدوان؛ لأن أبويه قد ربياه، أو بالأحرى أساء كل منهما إليه في التربية، بأن جعلتا التدليل وسيلة إرضائه، فكان إذا اعتدى لم يجد منهما عقاباً أو ردعاً؛ ذلك لأنه كان وحيدهما أو في مقام الوحيد، ولذلك أصبح العدوان أسلوب حياته، فهو حين كان يشتهي شيئاً أو يرغب في تحقيق غاية كان يعمد إلى الغضب والقهر حتى لو كان في استطاعه أن يحصل على غايته بالتراضي والمساومة، ونحن البشر نحتوي طائفة من العواطف؛ منها العدوان والرحمة والحب والكرهية والخوف والأمل، وأيما عاطفة من هذه العواطف تتغلب علينا تعين لنا سلوكنا في الحياة، وتقرر لنا الأسلوب الذي نعيش به، فنجد السعادة بالتعاون الاجتماعي أو الشقاء بالانفراد؛ لأنها — أي العاطفة — تطغى علينا فلا ننبعث إلى النشاط إلا عن سبيلها. وهناك — بالطبع — العاديون من الناس الذين يجمعون جملة عواطف تتنازع نفوسهم، فيجدون في هذا التنازع مجالاً للتعقل، ولذلك يسلكون سلوك التعقل أو ما يقاربه.

ولكن «محمود» وجد التدليل المفرط في طفولته وصباه، ووجد أن عدوانه يغفر له، فتمادى فيه.

وهنا نقطة نحب أن يقف عندها القارئ، هي أن العدوان هو الصفة الغالبة في الشهوة الجنسية، ونقول الشهوة لا الحب؛ لأن منابع الحب اجتماعية، بل أموية؛ أي إنها تعود إلى الأم؛ أي: حب الطفل لأمه، وهذا الحب هو حنان ورفق وتلطف وإعجاب، أما

الشهوة الجنسية فعدوان، بل إن هذا العدوان يجد من تظاهر المرأة بالتألم، أو من ألمها الصادق، ما يثير ويبعث اللذة في الرجل، وأحياناً تزيد عاطفة العدوان حتى تصير جنوناً يحمل صاحبه على إيلاام المرأة وجرحها.

وقد وجدت أنا في أحلام كثيرة أن الشاب عندما يغتاز من شاب آخر يحلم أنه فسق به، فالشهوة الجنسية هنا قد أثرت — على شذوذها — بالخصومة والعدوان؛ إذ هي تمثلهما.

والشهوة الجنسية إذا أصبحت مؤذية صريحة تسمى «سادية»، وهي إذا أصبحت تألمية؛ أي إن صاحبها يحب أن يتألم، سميت «مازوكية»، وعلى الرغم من التناقض بينهما هناك ارتباط خفي، بل إن هذا الارتباط نراه في بعض الناس الذين يقسون على غيرهم في المعاملة؛ لأنهم يقسون على أنفسهم.

وهذه المقدمة الموجزة قد احتجت إليها كي أوضح للقارئ الجريمة التي أكتب هذا المقال عنها، فإن «محمود» الذي دلت في طفولته وصباه نشأ على العدوان، ثم أصبحت الشهوة الجنسية عنده رمزاً للعدوان.

وقد تزوج في سن مبكرة، للتدليل أيضاً، فشرع يضرب زوجته منذ الشهر الأول من الزواج، ولم يكن هذا الضرب سوى «سادية» مستترة؛ لأنه كان عقب هذا الضرب، وبعد أن يسمع الصراخ والتأوهات يعمد إلى إشباع الشهوة الجنسية، ويعود الصلح والاسترخاء مكان الخصومة والتوتر، ولكن إلى حين.

وليس هناك مجتمع متمدن أو شبه متمدن يطبق الرجل المدلل؛ وخاصة إذا كان هذا التدليل قد اتخذ صورة العدوان، ولذلك أصبح «محمود» انفرادياً، بل كثيراً ما كانت تحتويه الغرفة التي يبني فيها أياً لا يخرج منها؛ لأنه لم يكن يجد الأنسة من صديق أو قريب، وكانت تلذ له هذه الوحدة؛ لأنه كان يجد في خواطر اليقظة وهو منفرد بالغرفة انتصارات رخيصة على أولئك الذين اعتدى عليهم فصدوا عدوانه، وقد قص على ابنه بعد وفاته أنهم في البيت كانوا يسمعون وهو يتكلم في غرفته بكلمات السباب يبصقها في الهواء على عدو خيالي، وأنهم كانوا قد ألفوا منه هذه الحال فلم يكونوا ينبهونه.

وحدث ذات مرة — وهنا الجريمة — أنه تشاجر مع حميه؛ أي: والد زوجته، وهذا حادث يحدث في بعض العائلات، والصلح قريب إذا كان المتشاجران قد نشأ كلاهما على تربية اجتماعية تحمل معاني التراضي والمسالمة، ولكن «محمود» لم يحصل على هذه التربية؛ لأن شعاره في الحياة هو العدوان، والعدوان فقط، ولذلك عمد إلى الانتقام من حميه بأسلوب عجيب، هو اغتصاب زوجته؛ أي: حماته.

وهنا المعاني المترابطة: العدوان، الاغتصاب، الشهوة الجنسية، السادية، الانتقام، كلها يتصل بعضها ببعض.

ويجب أن نذكر هنا أنه لم يحاول الوصول إلى حماته بالاحتيال أو الرفق، لا لأنه كان يقدر الخيبة، بل لأنه كان يجد في الاغتصاب لذة سادية لا تعدلها لذة أخرى، هي لذة العدوان: أسلوب حياته.

وفي ليلة سوداء مشئومة دعا حماته المسكينة إلى منزله، وهياً؛ أي: جعل زوجته تهيب لها؛ أي لأمها، وليمة فاخرة، وتعمشى الجميع وناموا معاً في غرفة واحدة. وقد كان هو يقص هذه القصة، ولم يكن يقصها إلا وتبدو على نفسه ووجهه أمارات الانتعاش بالانتقام، بل كان يضحك كثيراً عندما كان يصف البحة التي أصابت زوجته وهي تجره عن جسد أمها وهو في طغيانه الجنسي، وكانت بحة الزوجة من أثر الصدمة النفسية.

وتمت هذه الجريمة في الظلام، وأسدل الستار عليها؛ لأن كل فرد عرف بتفاصيلها من العائلة اضطر إلى التزام الصمت؛ لأن هذه الفضيحة تمس الجميع. وكل ما أبغيه من هذه القصة المؤلمة أن أقول إن هذه الجريمة إنما نبتت أيام الطفولة، حين دلت «محمود» أبواه، وحين كانا يتسامحان في عدوانه ويخضعان له ويلبيان جميع طلباته.

وهذه الجريمة هي واحدة من عشرات من الجرائم العدوانية التي ارتكبتها، وهي تحتاج إلى كتاب، وقد قضى «محمود» هذا — وهذا بالطبع ليس اسمه — نحو سبعين سنة لم يكسب فيها قرشاً يعرف جيبه، وإنما عاش ومات وليس له من أسلوب للكسب سوى العدوان الظاهر؛ كالاغتصاب والخطف، أو العدوان الخفي كالسرقة، ولذلك سرق أمه وزوجته وأخوته، وضرب أمه وزوجته وأخوته، وكان ذنباً يعقر وينهش كل من يعرفه. أيها الآباء، لا تدللوا الأبناء، ولكن أيضاً لا تضطهدوهم؛ لأن الاضطهاد يفسد الأبناء كالتدليل سواء، وإنما عاملوهم كما لو كنتم معلمين أغراباً وكانوا هم أطفالاً أغراباً، علموهم بالعدل والحب.

احذروا الجريمة والانتحار والجنون في أبنائكم بتجنب التدليل والاضطهاد.

جنون الاقتناء

من أجمل الكلمات الخالدة التي فاه بها هولز، أحد القضاة في المحكمة العليا في الولايات المتحدة، قوله: «الحياة صورة نرسمها، وليست أرقامًا نجمعها».

وقد عاش هولز أربعًا وتسعين سنة عرف فيها المجد، إذ بلغ أعلى مناصب الدولة؛ لأن القاضي في المحكمة العليا يستطيع أن يلغي قانونًا يصدره البرلمان، أو أمرًا يصدره رئيس الولايات المتحدة نفسه.

وقد عرف السعادة حتى إنه قال عقب وفاة زوجته أنه عاش معها ستًا وخمسين سنة من شهور العسل.

ولكنه عرف ما هو أحسن من المجد ومن السعادة، وهو الخدمة؛ فإنه قضى عمره كله وهو يخدم ويؤدي عمل الرجل الصالح، وهو أن ينتج للعالم أكثر مما يستهلك.

وقوله إن الحياة صورة نرسمها وليست أرقامًا نجمعها هو حكمة قد استقطرها من عمره المديد الذي أوشك على أن يصل إلى المئة، ذلك أن كثيرين من المغفلين البارعين يقضون أعمارهم مسخرين في اقتناء المال بصورة المختلفة؛ سواء أكان أرضًا زراعية، أو قصورًا، أو سيارات، أو مصوغات، أو نحو ذلك، وهم ينظرون بالعين الحسابية إلى ماضيهم، فقد كانوا قبل عشرة أعوام لا يملكون سوى ألف جنيه، أما الآن فثروتهم تزيد على عشرة آلاف، وكانوا قبل خمسة أعوام لا يقتنون سوى سيارة، أما الآن فإن لهم سيارتين، ونحو ذلك من ضروب الاقتناء الذي يعد بالأرقام.

ولكن الحياة ليست أرقامًا نجمعها، وإنما هي صورة نرسمها بحيث نعرف قيمتها بما تحوي من ملامح جميلة جلييلة، وألوان زاهية نضرة، وبما احتوت من حب يجعل أيماننا جميعًا «شهور عسل»، وبما أنتجته لنا من تربية و تثقيف تمتلئ منها عقولنا نورًا وبصيرة.

محاولات

أجل، يجب أن نقول آخر العمر: ما أجمل ما كانت حياتي، وليس ما أكثر ما حويت
من مال وعقار!

زي اللغة!

إذا أردت أن تتعرف إلى أخلاق الكاتب، فابحث عن الكلمات التي تتكرر في كتاباته؛ إذ هو لا يكررها إلا لأن إغراءها قوي له.

وإذا أردت أن تزيد هذا التعرف، فابحث عن الأسلوب الذي يتخذه، وعن اللهجة التي يكتب بها، هل هي حزينة أم بهيجة؟ ومتكبرة متعجرفة أم ذليلة مترددة؟ هل هو عدواني أو استكائي؟ إذ هو لا ينساق في نهجه معينة في أسلوب معين، إلا لأن عواطفه قد عينت له لحنًا محببًا إلى نفسه، وأسلوبه هو لحنه الذي يترنم به في صمت.

وإذا أردت أن تعرف أكثر وأكثر عن هذا الكاتب، فابحث عن الموضوعات التي تشغله عفوًا دون تكليف؛ إذ هو لا يختارها إلا لأن اهتمامه بها عظيم.

فالكلمة والأسلوب والموضوع، كل هذه تعين شخصيتنا، وتدل على أخلاقنا، بل هي تعين أفكارنا؛ نوعها ووجهتها وقيمتها.
ذلك لأن الأفكار كلمات.

تقيم في القاهرة هذه الأيام سيدة أمريكية تدعى هيلين كيلر، وقد ولدت صماء عمياء، لا ترى ولا تسمع.

وقد احتاجت إلى جهود السنين من المعلمين الذين أرسدوا كل وقتهم لتعليمها الكلمات الإنجليزية.

وتعلمتها، وأصبحت فيلسوفة تؤلف وتستخرج العبرة من الحوادث، ولو أنها كانت قد أهملت ولم تتعلم الكلمات لبقيت عجماء في مركز الحيوان.

قد يقال إن الملابس هي زي الجسم، وأن اللغة هي زي العقل، ولكن هذه المقارنة مخطأة؛ لأن اللغة هي العقل كله.

ولكن من الحسن أن نأخذ بهذه المقارنة المخطأة كي نزيد كلمتنا هذه إيضاحاً؛ ذلك أن كثيرين من شبابنا وفتياتنا يعنون أكبر العناية بهندام ملابسهم، ولا يعنون بهندام لغتهم، فهم يكرهون التبذل في اتخاذ حذاء بالٍ أو جورب قد تقادم زيه، ولكنهم لا يباليون أن يتبدلوا في لغتهم، فتخرج كلماتهم عوراء، أو هي تحمل المعاني الغثة، أو قد يتفكك حديثهم كأنه بلا أزرار لم يُحبك.

وهم بهذا التبذل يكشفون عن نفوسهم ويفضحونها؛ لأن المستمع إليهم، الذي يدري قيمة الكلمة والأسلوب والموضوع، سرعان ما يسبر أعماقهم، ويصل إلى نخاع عظامهم، وكان أخرى بهم أن يعنوا بالتأنق في الزي الذي اختاروه لنفوسهم، من أن يتأنقوا في الزي الذي اختاروه لأجسامهم.

وليس شك أن التأنق في اختيار الزي النفسي أشق من التأنق في اختيار الزي الجسمي، ولكن هذه المشقة نفسها برهان على الذكاء والجمال، كما هي أدعى إلى السعادة.

إن المحدث، ثري الحرب، يُعرف بفجاجة ذوقه في اختيار الملابس، ولكن الطرزي يستطيع أن يعالجه من هذه الفجاجة، ثم تبقى فجاجة أخرى، وهي فجاجة لغته وشعث أسلوبه وتفاهة موضوعاته، وهي في حاجة إلى عمر جديد، كي يصل بإتقان هذه الأشياء إلى هندام النفس وجمال الشخصية.

ولنذكر على الدوام أن عنايتنا باللغة هي في النهاية عناية بالتفكير، بل بالأخلاق والشخصية، وأن الكلمات المختارة إحياء مختاراً أيضاً يبعثنا على الرقي والسمو.

هذه الكلمات السابقة عامة عن اللغة، ونحب أن نخصص هذه الكلمات التالية لبحث قيمتها من ناحية السلامة النفسية؛ أي: سلامة النفس واستقامة الأخلاق ونضج الشخصية.

ومن البدهيات أن نقول إننا لا نعرف الصحة؛ جسمية أو نفسية، إلا من المرض، فما دمنا لا نجد علامة من علامات المرض فنحن في صحة، فالصحة سلبية؛ أي إنها ليست مرضاً، ولغة المريض هي لذلك غير لغة السليم، فإذا نحن تعقبنا الكلمات، والأسلوب، والموضوعات، التي يستعملها المريض استطعنا أن نعرفه المعرفة السيكلوجية، وأن نهتدي إلى الأصول التي ينتمي إليها، وإلى المستقبل الذي يبينه أو يخشى أن يبينه.

وأول مرشدنا إلى قيمة اللغة في إيضاح الحال النفسية هو الأستاذ يونج السويسري، فإنه ابتكر طريقة التحقيق اللغوي مع المجرمين أو المتهمين؛ ذلك بأنه كان يضع أمام المتهم المنكر كلمات معينة تتصل بالجريمة التي اتهمه بها، فإذا كان المتهم قد ارتكب هذه الجريمة فإنه لا يتمالك، عندما تذكر له كلمة ويطلب منه أن يذكر كلمة أخرى تتصل بها، لا يتمالك أن يقع؛ لأن الكلمة الأخرى تتصل بالجريمة التي تملك عليه عواطفه بالذكري والخوف، وهو حين يرفض النطق السريع بالكلمة إنما يدل على أنه يحرص على الصمت، وفي هذا وحده اتهام، أما إذا كان بريئاً لا يعرف شيئاً عن الجريمة فإنه لا يبالي أية كلمة تخطر على باله، ولا يحتاج إلى أن يصمت ويتريث، فكلمة سكين قد تثير عند البريء كلمات: الفرخة، الصلب، الجزار، الخادمة، أما عند المجرم الذي استعملها في جريمته فإن ذكرها يثير عنده الخوف والصمت، أو إذا هو لم يصمت، فإنه يقع بسهولة في تفاصيل الجريمة التي ارتكبتها، وهلم جراً في الجرائم الأخرى.

وعندما نجد مريضاً يشكو حالاً نفسية سيئة؛ كالخوف أو الشك أو التردد أو العجز الجنسي أو الرغبة في الإجرام، نستطيع أن نصل إلى بؤرة هذا الاضطراب في نفسه، بأن نلاحظ لغته ونلقت إلى الكلمات التي تتكرر في حديثه؛ إذ هي لا تتكرر إلا لأنها قد ارتبطت بمركبات معينة في نفسه، وهو هنا لا يختلف من الكاتب الذي يفتأ يكرر كلمات معينة في مؤلفاته. غير أن مركبات الكاتب ثقافية تتصل بالعلم أو الفن أو الأدب أو الاجتماع، أما مركبات ذلك المريض فتتصل بهومومه الشخصية التي ترهقه وتؤله.

والمشابهة بين المريض وبين الكاتب كبيرة، فإن الكاتب يضيق بأفكاره حتى يبوح بها ويدونها في كتاب أو مقالة أو قصة؛ لأن هذا التدوين يحمله على شرحها وترتيبها بالكلمة والمعنى، فيذهب عنه الكظم، ومن هنا إحساسه بأنه يحمل رسالة كأنه نبي، وفي هذا الإحساس جنون حسن؛ إذ هو يكسبه وهمًا بأنه عظيم، فيرتفع بقوة هذا الإيحاء، إيحاء العظمة، ثم هو لذلك لا يطيق أن تقيد حرية الرأي، وكثيراً ما يضحى بكل مصالحه الأخرى من أجل هذه الحرية.

والمريض كذلك، يحس أنه يكظم مخاوفه أو شكوكه، فهو حين نطلب منه أن يقعد في خلوة ويكتب شارحاً هذه المخاوف إنما نحيله إلى أديب، يحاول بالكلمات، أن يشرح كارثته، وأن يتعقلها باللغة؛ لأن كلمات اللغة هي أدوات للتعقل، وهو بهذا الشرح يفرج عن كظمه من ناحية، وأيضاً يوضح مشكلته بالكلمات؛ أي: بالمنطق، من ناحية أخرى، فيستريح.

محاولات

واعتقادي أن دراسة اللغة، من ناحية القيمة السيكلوجية، لم تأخذ إلى الآن حقها، وإن كانت السيمائية قد فتحت لنا هذا الباب.

الأخ الأكبر لص العائلة!

الابن الأكبر؛ أي الابن البكر في نظامنا الشرقي الحاضر، هو في الأغلب شاذ، له سيكولوجية خاصة كثيرًا ما تنتهي إلى إيذاء العائلة.

وفي أوروبا وأمريكا تُولف الكتب الخاصة لدراسة الحال النفسية للابن البكر؛ لأنه يشذ عن سائر إخوته في أخلاقه وأسلوب حياته ووجهته نحو المستقبل، ولكن هذه الأحوال جميعها تتفاقم في مصر لسببين؛ الأول: أن الابن دون البنت يجد تقديرًا كبيرًا جدًّا للعقلية الشرقية السائدة عندنا، والثاني: أن الأم عقب وفاة الزوج لا تستطيع إدارة شؤون أولادها، ولذلك يتولى الابن الأكبر هذا العمل، ويتولاه بالأسلوب الذي نشأ عليه، والذي تكون له بمكانته الخاصة في العائلة.

أما الأسباب للشذوذ السيكولوجي للابن الأكبر فكثيرة؛ ذلك أنه وحيد أبويه لا يجد له مزاحمًا في البيت، وقد جاء على تشوق من الأبوين وهما لا يزالان عروسين، فهما لذلك يدللانه، وهما قادران على هذا التدليل من حيث الإنفاق؛ لأنهما لا يجدان غيره في البيت، ولذلك ينشأ على أن يفرض إرادته، وعلى أن يبطش كثيرًا إذا لم يجد ما يطلبه.

وقد لا يكون الابن البكر أول الأبناء؛ إذ قد يأتي بعد ثلاث أو أربع بنات حين يكون الأبوان في اشتياق له، فهو يأخذ مكانة الابن البكر من حيث المعاملة التدليلية التي يؤثره بها أبواه على أخواته البنات، وهما بذلك يحطمان أخلاقه في المستقبل، ويغرسان به شوكة واخزة في العائلة.

فإذا كان هذا الابن البكر وحيدًا في البيت نشأ — كما قلنا — على فرض إرادته، وإذا وجد له أخوات تعود التسلط عليهم، بل العدوان؛ لأن أبويه يتسامحان معه في ذلك.

وأخلاقنا أو أسلوب حياتنا الذي نتعلمه في السنين الأولى من الطفولة يثبت فينا ولو بلغنا الستين من العمر، ولذلك فإن هذا الابن الأكبر، أو الابن الوحيد بين أخوات من البنات،

يعيش حياته وهو يعتقد أن له الحق في التسلط على أخواته والعدوان عليهن بالسرقة أو الاغتصاب أو الغش، وهو يمارس كل ذلك ولا يجد الضمير الواخز الذي يرده. وهموم العائلات في مصر ومتاعبها كثيرة بسبب هذا الابن الأكبر، فإنه عندما يموت أبوه يثب إلى ملء مكانه، والأم — كما قلنا — لا تستطيع ملء هذا المكان في مصر بخلاف الأم في أوروبا؛ لأن هذه متعلمة اختلطت ونضجت في المجتمع وفهمت مشكلاته، أما في مصر فإننا بفضل الرجعيين المعتوهين نجعل الأم بعيدة عن المجتمع، بعيدة عن المشكلات الاقتصادية والاجتماعية. ولذلك سرعان ما يثب الابن الأكبر عقب وفاة أبيه فيستولي على تراث أخواته، بل تراث أمه أيضاً، ثم يصول ويتسلط وينهب، والرأي العام في مصر يقول ببقاء العائلة كتلة واحدة، أو «لمة» واحدة، ولذلك ينفر من الفرد الذي يطلب الانفصال. والابن الأكبر يستغل هذا الرأي فيبقى على استلابه لأموال العائلة كلها، والويل للأخت المسكينة التي تطلب حقها من إيجار فدانين أو ثلاثة أفدنة منه كي تستعين بها على تربية أولادها؛ لأنها في هذا الطلب تخالف التقاليد، والابن الأكبر وحده هو الذي يستمتع بربع هذه الأرض.

وهذا الموقف يحيل الابن الأكبر إلى لص، فهو يسرق وينهب ويخطف وهو راض عن نفسه؛ لأنه يجد «التسويل» السيكلوجي لكل جرائمه، بل هو قد يسرق أمه، وإحساسه هنا؛ أي: الإحساس الكامن في نفسه، أنه قد قام مقام أبيه، فلا حرج.

وفي المحاكم المصرية مئات بل آلاف القضايا عن هذا الابن الأكبر الذي سرق إخوته ونهب تراثهم، وهذا الابن الأكبر قد يأبى، بل هو قد لا يفكر بتاتاً في أن يسرق عشرة قروش من جيب جاره في الترام أو القطار، ولكنه لا يجد أية جريمة في أن يسرق عشرة أفدنة من أخيه الصغير أو أخته المتزوجة؛ وذلك لأنه — كما قلنا — قد نشأ في صباه، بل طفولته، على أنه هو المفضل في البيت، وإرادته هي النافذة، وليس لواحد من إخوته أن يعترض على طلباته، وكل هذا من تدليل أبويه له، هذا التدليل الذي يرجع إلى أنه كان أول الأولد، أو كان ذكراً وحيداً عقب إناث مكروهات بحكم الرأي العام الشرقي الرجعي الذي يطلب استبقاء التقاليد ولو كانت تنطوي على الظلم والموت لأعضاء العائلة.

وكثيراً ما يحدث أن يسوء مصير هذا الابن المدلل الذي تعود التسلط والعدوان على إخوته وسرقة تراثهم؛ إذ هو قد يرتكن إلى ذلك ويقنع به، فالعزبة أو المتجر أو المصنع الذي تركه أبوه لأمه وله وإخوته عطاء المنح والتسمح وليس عطاء الحق، وقد ينجح ويثري من ذلك، ولكنه أيضاً قد يكف عن الارتزاق بعمل منتج، فتضيع عليه فرص الكسب.

وأرجو القارئ أن يجد في هذا التحليل السيكولوجي الموجز بعض ما يفتح بصيرته في المشكلات العائلية وخصومات الأخوة، فإن كثيراً منها يرجع إلى هذا الابن البكر الذي لا يطبق المساواة مع إخوته، والذي يسرقهم ويغتصب أموالهم بلا حياء أو شهامة.

بل أرجو القضاة أن يفتحوا عيونهم لمثل هذه القضايا التي تقوم على خصومات الإخوة بشأن التركة؛ لأن مرجعها كلها هو مطامع الأخ الأكبر.

أما الآباء فإن مسئوليتهم خطيرة، ولذلك يجب أن يحذروا التذليل، وعليهم أن يذكروا أنهم يربون في شخص ابنهم البكر عدواً لسائر أبنائهم حين يدللونه، وهو عدو قد يتعس أمه وإخوته ثلاثين أو أربعين سنة.

وهناك بالطبع حالات لا يستطيع الابن الأكبر أن يؤدي فيها إخوته؛ كأن يحدث — مثلاً — أن يبقى الأب حياً إلى أن يبلغ جميع أبنائه سن الرشد، فإذا مات ورأوا طمعاً واستبداداً من شقيقهم الأكبر عمدوا إلى صده ومنعه من التسلط والاستيلاء على ما ورثوا. وحتى هنا أجد أن عاداتنا الشرقية تحمل الابن الأكبر على أن يطمع ويسرق؛ وخاصة حقوق أخواته المتزوجات.

ولكن الضرر الفادح ينشأ من ذلك الحظ السيئ، وهو أن يموت الأب وللابن الأكبر أشقاء صغار، فإنه هنا يشرب دمائهم دون أي إحساس بما يرتكب. والخوف من الفضيحة، وكذلك رحمة الأم، يمنعانها من الشكوى، وهي مع ذلك أم جاهلة قليلاً ما تدري الحقائق؛ لأن التقاليد كانت تقول بالتزامها البيت دون التدخل في شؤون زوجها. وهناك — بالطبع — ذلك الابن البكر أو الأخ الأكبر الذي لم يفسده التذليل أيام الطفولة ولم ينشأ على التسلط أو الاستبداد وتبرير السرقة من إخوته، فهو لذلك بارٌّ بهم.

مكر المغفلين

ليس الفرق كثيراً بين الغفلة والمكر، بل إن هناك ما يبعث على الظن بأن المغفل بليد الذهن كثيراً ما يلجأ إلى المكر؛ ذلك لأنه يجد أن الطريق الواضح والعمل الصريح يكشفان عن بلاذته وغفلته، فهو لذلك يلجأ إلى الوسائل الملتوية والعمل الخفي، إلى المكر والغش والسرقه والتزوير والإغواء والتملق، بل جميع الجرائم تقريباً تعود إلى المكر من حيث إنها تجري في الظلام، وواضح أن المجرم الذي يلجأ إنما يفعل ذلك لأنه يعجز عن الكسب بالطرق الصريحة المكشوفة، فهو يمكر للعجز وليس للقوة؛ أي: للبلادة وليس للذكاء.

وأسوأ ما في هؤلاء المغفلين الماكرين أنهم يمكرون بأنفسهم، ويحطمون مستقبلهم، ويزيفون حياتهم بأكثر مما يفعلون بضحاياهم؛ لأن هذا المكر الذي يتخذونه يعود أسلوباً لسلوكهم يلتزمونه طوال حياتهم. وفي النهاية، ومع نجاحهم في المكر مرة بعد أخرى؛ أي بعد نحو أربعين أو خمسين سنة من العمر، يجدون أنهم قد خسروا، وأن ذلك السانج الذي سرقوه أو نصبوا عليه تفوق عليهم بالبدءوب في العمل، والتزام الطرق الصريحة المكشوفة، والقناعة بالكسب القليل الذي يتجمع ويتراكم في مدى السنين فيغدو ثروة عظيمة.

بل لقد رأيت من نتائج هذا المكر الذي يمارسه هؤلاء المغفلون أنه يحملهم على أن يعاملوا به أقرب المقربين إليهم من زوجة وأبناء؛ لأنه لصق بهم وجرى في عروقهم، وعندئذ ينكشفون ويجدون الاحتقار، وربما المقاطعة من هؤلاء الذين كانوا ينتظرون منهم الحب أو الاحترام.

والرجل الذكي لا يحتاج إلى المكر؛ لأنه يجد في الاستقامة والدعوب والعمل الصريح المكشوف ما يصل به إلى غايته. وكثيراً، لهذا السبب ما يبدو لنا ساذجاً وليست به سذاجة، وإنما به صراحة تنأى وتشمئز من الالتواء والاعوجاج والاختفاء.

ولو أن الماكر المغفل كان على شيء من البصيرة؛ أي: نور العقل والقلب، لعرف أنه بمكره يكسب المعركة، ولكنه يخسر الحرب، والحياة حرب يحتاج الانتصار فيها إلى خمسين أو ستين سنة، والدعوب في العمل الصريح طوال هذه السنين هو الذي يكسب هذه الحرب، أما كسب المعركة العابرة فسرعان ما تتلاشى ثمرته.

كيف نعالج المجرمين

الوسط أو الوراثة؟

كان هذا السؤال موضوع البحث عند البيولوجيين والاجتماعيين في أواخر القرن الماضي وبداية القرن الحاضر، وكان الاتجاه العام بين العلميين أن الوراثة هي كل شيء تقريباً؛ فالمجرم يقترف آثامه لأنه ولد كذلك ليس لأنه ربي في وسطه، والإنسان ينبغ في فن أو علم أو قيادة أو مال لأنه ورث صفات النبوغ، وليس لأنه قد تعلمها في وسطه. وقد كان هذا المذهب قاحلاً جامداً يمنع التفكير في الإصلاح، ويسلم بأن الناس يعيشون تحت حكم الأقدار، والأقدار هي ما ورثوا مما لم يكن لهم يد في تغييره أو تحويله.

ولكننا قد تخلصنا هذه الأيام من هذا المذهب، والفضل في هذا التخلص للسيكولوجيين؛ وخاصة أدلر الذي أوضح لنا قيمة السنين الأولى في أعمارنا حين تتكون أخلاقنا وتكاد تجمد على ما تكونت عليه سائر حياتنا، إلا في القليل النادر الذي نستطيع فيه التغيير. فحكم الأقدار هو حكم السنين الأربع أو الخمس الأولى من العمر، ولكن هذه السنين لا تزال تحت سيطرة الآباء، فالتنبية عن قيمتها وتحذير الآباء بشأن أثرها في الطفل يؤديان إلى نتيجة مثمرة، أما التسليم بأن الطفل قد «ورث» صفاته وأخلاقه، وأنه سوف ينشأ عالماً أو مجرماً وفاضلاً أو رذيلاً، فلا يؤدي إلى بذل الجهود لتوجيه الطفل أو تدريبه على سلوك معين.

والمجرم هو في تعريفنا الجديد — باعتبار أن الوسط الأول هو الذي يكونه ويوجهه — هو رجل قد تجاوز العشرين إلى الستين أو السبعين، وقد وقف نموه الاجتماعي عند سن الخامسة أو السادسة، فهو طفل على الرغم من تقدمه في السن، أناني لا يعرف

التعاون، يبطش بدلاً من أن يرفق، وهو يخطف ويغتصب، ويكره تأدية الواجبات، وهو يسير في طاعة عواطفه دون الاعتماد على التفكير المتزن.

ونحن الآباء كثيراً ما نخطئ في تربية الأطفال، فنحن ندلل أو نضطهد أو نهمل أو نتحيز لطفل دون آخر، أو نكره أو نحب بلا سبب يبرر ذلك، ولكل هذه المعاملات المختلفة آثار مختلفة في الأطفال؛ فإن الطفل يستجيب لهذه المعاملات بعقله الطفلي؛ أي: بعواطفه فقط، فهو يعاند ويحتال ويخبت أو يتلصص ويسلك سلوك المجرمين، وقد نرى نحن الآباء هذه الأخلاق السيئة البازغة فنتعلل بأن الطفل سوف يقلع عنها حين يكبر.

ولكن الواقع أنه لن يقلع عنها، وإنما يحدث أنه يجد حين يكبر وسطاً حسناً يهيئ له الكسب والاحترام فلا يرقد إلى سلوك الطفولة الذي تعلمه، ولكنه حين يصدم بخسار مالي أو بهزيمة أمام خصم أو بحرمان معين، يعود إليه هذا السلوك فيقع في الإجرام. فالإجرام في نظرنا هنا هو سلوك طفلي قد كمن مدة طويلة في النفس، ثم طفر إلى السطح لطارئ معين أو لصعوبة أحدثت توترًا عاطفيًا.

وهناك بالطبع حالات متطرفة، حين تكون الطفولة شاذة فيما لقيت من قسوة أو معاكسة، كما يحدث حين يربي الطفل مع زوجة أبيه التي تكرهه وتحرمه وتهينه، فإنه ينشأ على الاحتياط من المجتمع بطرق عدوانية؛ لأن المجتمع يأخذ هنا مكان زوجة أبيه التي كان يحتمي منها بالخداع والسرقة وأحياناً بالبطش.

والعقوبات الحاضرة للمجرمين انتقامية أكثر منها تعليمية، بل هي أحياناً انتقامية فقط؛ فالقاضي يعامل المجرم بمثل الأسلوب الذي كان هذا المجرم يعامل به المجتمع؛ أي: بالعاطفة، ولذلك يخرج المجرم من السجن وهو أسوأ مما كان حين دخله، ثم إن المعاملة التي يلقاها في السجن تزيده إصراراً على الإجرام وابتعاداً عن الأساليب الاجتماعية التي يحتاج إليها كي يعيش في سلام.

وأسوأ ما في السجن هو الحبس الانفرادي؛ ذلك لأن المجرم في الأصل انفرادي؛ أي: غير اجتماعي، ونحن حين نجعله ينفر في خلية السجن إنما نجعله يستسلم لعواطفه ويستترسل في أفكاره الانفرادية الاحتياطية، فإذا خرج ساءت معاملته لغيره لنقصه في الأخلاق الاجتماعية؛ إذ هو لا يعرف البشاشة أو الظرف أو الإيماءة الحسنة.

وأحياناً حين يحبس مع غيره ويجتمع من سائر المجرمين تعمد إدارة السجن إلى أساليب بهيمية في معاملتهم، كأن تتركهم — مثلاً — «يتبرزون» على كنف مكشوفة، فيرى كل منهم الآخر وهو يتبرز، ومثل هذه الحال تزيدهم احتقاراً للبشر واجترأ على السلوك البهيمي.

كيف نعالج المجرمين

ثم إن المجرم حين يجتمع بالرجال من جنسه، ويعيش في حرمان جنسي سنتين أو ثلاث سنوات، يلجأ إلى الاختلاط الجنسي الشاذ، ويخرج من السجن وقد تعلم شذوذاً آخر غير شذوذه الذي كان قد دخل من أجله السجن.

ثم هو قد يبقى السنين في السجن وهو لا يتعلم مهنة يتسلح بها حين يخرج، ولذلك يخرج شريداً يعمل في الأعمال الطارئة التي لا تحتاج إلى مهارة، والتي ليس لها دوام، ولذلك يعود بسهولة إلى الإجرام للكسب أو للزيادة في الكسب.

ماذا يجب أن نفعل مع المجرم كي نعالجه؟

(١) يجب أن نعلمه مهنة يحترفها، فإن كثيراً من المجرمين لا يحترفون عملاً لأخلاق الطفولة التي لا تزال عالقة بهم، وفي الحرفة من الإحساس بالمسئولية وتأدية الواجب ما ينأى عن اتجاه الطفل والمجرم معاً، ولكن المجرم يزيد ابتعاداً عن المجتمع كلما تشردّ وبعد عن المهنة الكاسبة التي ترد إليه كرامته وتجعله يحس أنه رجل منتج نافع في المجتمع، وكم منا يستطيع أن يقول إنه يبتعد عن الإجرام لو أنه حرم عملاً كاسباً؟ لذلك يشير أدلر بأنه يجب على إدارة السجن تعليم المجرم عملاً يكسب منه ويحترفه بعد خروجه من السجن، وخير الأعمال التي يحترفها هو ذلك الذي اتجه إليه في الإجرام؛ إذ هو يتقن هذا العمل الأقل ويحس بكفاءة له، فإن المجرم الذي تخصص في كسر الأقفال أو فتحها يمكن أن يحترف عمل الأقفال وتصليحها، أو ما يقارب هذا العمل في المهارة الفنية، والمجرم المزور في الخطوط يمكن أن يقوم بالخبرة في الخطوط، وهلم جراً.

(٢) يجب أن يهيأ مجتمع حسن في السجن حتى يتدرب المسجون على عادات وواجبات اجتماعية تعاونية فيتخلص من انفراديته وأنانيته، وهذا المجتمع يجب أن يشبه المجتمع المدني الذي سوف يعيش فيه بعد خروجه؛ أي أن يكون لكل فرد فيه حقوق وواجبات. ولكن يجب أن هناك يكون تدريب تعاوني يخفف من الأناية.

(٣) على كل مسجون أن يؤدي في السجن عملاً مأجوراً حتى يرسخ في نفسه أن الكسب يأتي من العمل.

(٤) الشذوذ الجنسي ينشأ من السجن ثلاث أو أربع سنوات، ولذلك يلتفت الرجل إلى الرجل للتخلص من الكظم الجنسي، فهو يتعود في السجن لوناً من الإجرام لم يكن يعرفه، في الأغلب، قبل دخوله فيه، وقد تثبت فيه هذه العادة بعد خروجه.

يجب أن تكون مهمة السجن إيجاد رجوع انعكاسية مكيفة في المجرم، بحيث يعتاد منها عادات جديدة تلائم المجتمع، ومن الخطأ العظيم أن نحبس المجرم الذي ارتكب الشذوذ الجنسي في سجن لا يجد فيه غير الرجال الذين يمارس معهم الشذوذ نفسه الذي أدى به إلى السجن.

ويجب أن نعود المجرم التعاون بدلاً من الانفراد، ونجعله يحس أن العمل المنتج هو الطريق إلى الكسب، وذلك بتعويده عملاً معيناً يكسب منه في السجن، ثم يكسب منه بعد خروجه إلى المجتمع.

إن الإجرام مرض في النفس لا يختلف عن السل أو الجذام في الجسم، وهو يحتاج إلى الطبيب النفسي المعالج أكثر مما يحتاج إلى القاضي القانوني المعاقب.

كما نعمل نكون

كان أرسطو طاليس يقول إن الأخلاق ليست شيئاً آخر سوى العادات؛ أي: عادات العمل والاتجاه والسلوك والتفكير، ونستطيع أن نزيد بمعارفنا السيكلوجية العصرية على ما قال بشيء من الإيضاح.

وذلك أن العادات؛ أي: الأخلاق، تنغرس فينا في السنوات الخمس أو الأربع الأولى من الطفولة، وإنما نكاد نتجمد على ذلك سائر حياتنا.

ونستطيع أن نقول إن الوسيلة لتكوين العادة هي العمل، ومن هنا القول «كما نعمل نكون»، فإذا شئنا أن نكون أبرارًا خيرين فإننا يجب أن نمارس البر ونعمل الخير؛ لأننا ونحن نتحرك في تأدية المروءة لمحتاجها أو الخدمة لطالبها نحس إحساس البر الخير، فيعود هذا الإحساس جزءاً من أخلاقنا، وهكذا الشأن في كل ما نعمل ونؤدي.

فكما تثار عاطفة الحب بالتقبيل، وكما يثار الجوع بتناول اللقمة السائغة، وكما يثار إحساس النشاط بالمشي أو الجري، بل كما تثار عاطفة القتال بين الكلاب بالممارسة بينها، كذلك تحملنا أعمالنا وألوان نشاطنا على إيجاد عواطف الحب أو الكراهية، والرفق أو البطش، والبر أو العقوق، وهذه العواطف هي في النهاية أخلاقنا.

فإذا شاء الشاب أن يكون شريفاً فليمارس الأعمال الشريفة، ولتكن ممارسته إيجابية وليست سلبية مقصورة على تجنب الرذائل؛ أي: عليه أن يؤدي المروءة وينهض بالخدمة، وهو حين يفعل هذا ينفذ الناس، ولكنه هو ينتفع أيضاً؛ لأن نشاطه هذا قد استحال إلى أخلاق سامية في نفسه.

ومن هنا أيضاً قيمة التربية بالعمل وليس بالتلقين والنصيحة والزجر؛ لأن الطفل حين يعمل يحس عاطفة معينة هي جزء من أخلاقه التي سيعيش بها سائر عمره، بل كذلك الشأن في الرجل مع ما في ذلك من صعوبة.

متى تصير المرأة إنساناً؟

هناك التباسات لغوية كثيرة تؤدي إلى مركبات وارتباكات ذهنية بعيدة المدى، من ذلك — مثلاً — كلمة «الطهارة» و«النجاسة»؛ فإن الوثنيين في عصرنا هم أعظم من يبالي الشعائر التي تستدعيها هاتان الكلمتان اللتان تلصقان بالشئون الجنسية في الأكثر، وتشملان الشئون الأخرى للحياة على الأقل، ولا تزال المرأة الريفية في الهند تقضي نحو ساعتين كل يوم في «تطهير» أنية الطبخ.

وقد كنت أظن أن الهنود وحدهم هم الذين كانوا يعتقدون النجاسة في الأرملة، ولكنني وجدت الزمخشري يقول في «غريب الحديث» إن الأرملة نجسة، وأنها إذا مست شيئاً أتلفته.

وقد ورثنا نحن كثيراً من المعاني الملتبسة من كلمة الطهارة؛ فنحن — مثلاً — نعد الفتاة العذراء طاهرة، ولا يمكن أن ترتفع المرأة المتزوجة إلى مستوى العذراء، وننسى أننا بذلك نعد الأمومة أقل طهارة من العذرية، وهذا مبدأ خطر؛ إذ هو بمثابة القول بأن الراهب من الرجال أكثر طهارة من الأب، بل كذلك الراهبة أكثر طهارة من الأم.

والرهينة مبدأ انتحاري ضد الأمومة وضد الأبوة، ولكنها تقوم على توهم الطهارة عند كل من يمتنع عن الاتصال الجنسي؛ سواء أكان رجلاً أم امرأة، مع أن هذا الاتصال الجنسي هو أساس البقاء البشري، وإذا كان هناك معنى للطهارة، بل القداسة، في أعضائنا فإن تلك الأعضاء التي نتسل بها إلى التناسل هي أشرف وأقدس ما في أجسامنا، ولو أننا كنا قد أسبغنا عليها هذه المعاني السامية لما كان هناك مكان للتبذل أو الامتهان أو الهوان في استعمالها.

وأنه لما ينفع ويثمر أن نقول إن الزهور، وهي أجمل ما في النبات، هي الأعضاء التناسلية، وكان يجب من منطقنا الاجتماعي أن نسمي الزهر: عورة.

والتاريخ يدل على أن معنى النجاسة قد لصق بالمرأة منذ آلاف السنين، فإن رجال القبيلة الذين يتهيئون للصيد جماعة يتجنبون نساءهم قبل خروجهم لرحلة الصيد بنحو أسبوع أو أكثر، وذلك كي يبقوا طاهرين ترضى عنهم الآلهة وتبارك لهم في الصيد، والتفسير السيكولوجي لهذه الظاهرة أن الإنسان البدائي كان يؤمن بالعدوى السحرية، وبما أن المرأة إنسان ضعيف العضل لا يقوى على مواجهة الوحوش، فإن الاتصال بها قبيل الصيد ينقل إلى الرجل عدوى ضعفها، ولذلك يجب أن يتجنبها، وإذا اتفق أن لامسها فإنه يجب أن يتطهر حتى يتخلص من ضعفها.

وهذا هو تفسير النجاسة في الأملة، فإن ترملها يعدي، فإذا مستها زوجة مات زوجها، وإذا رآها زوج خيف عليه الموت، كما مات زوجها، بالعدوى السحرية. وقد تخلص الغربيون من هذه المعاني، إن لم يتخلصوا منها كل التخلص، أما الشرقيون فلا يزالون يتعلقون بهذه المعاني التي اندست في نفوسهم فأوجدت مجتمعاتهم الانفصالية التي تفصل بين الجنسين.

واعتقادي أن الأصل للحجاب هو هذا الخوف من النجاسة؛ لأن الفكرة الأولى أن توضع المرأة في مكان لا يتيح لها الاختلاط المستمر بالرجل، إنما يجاز هذا الاختلاط بشروط وفي حدود.

وقد كانت جميع المجتمعات القديمة تمارس شيئاً من الحجاب للمرأة يزيد في الأمم البدوية التي يرحل رجالها للصيد أو الغزو، ثم ينقص في الأمم الزراعية لاحتياج الرجل إلى زوجته في الحقل، وأخيراً يزول في الأمم الصناعية العصرية حيث تستقل المرأة وتعمل كاسبة في المصنع أو المكتب، لا تحتاج لأن يعولها الرجل.

ولكن شيئاً من هذا الحجاب لا يزال يلزم المرأة حتى حين تعيش في وسط صناعي متقدم، وذلك بقوة التقاليد الموروثة، فإننا نفرض على المرأة قيوداً تمنعها من الاختبارات التي نجيزها للرجال. وبكلمة أخرى نقول إن للرجل في المجتمع الحديث الحق في أن يعمل ويصيب ويخطئ، أما المرأة فلا يجوز لها أن تتعرض للخطأ، ومن هنا احتجازها؛ فهي لا تقدم إقدام الرجال، وهي لا تدرس دراسة الرجال، وهي لا تغامر مغامرات الرجال؛ إذ هي تحس أنها في حجاب اجتماعي، وهي لذلك تخشى الخطأ أكثر مما يخشاه الرجال. وفي أحوال كثيرة، وخاصة في الشرق، تقنع بالنظر إلى الدنيا من خلف الباب، من صير القفل، ولا تنتج، بل تتفرج، وهي حتى هنا لا تحسن التفرج.

وهذا الحجاب، هذا الاحتجاز، ينتهي بها إلى إثارة الجهل على العلم، والسلامة المأمونة في ركن البيت أو زاوية المكتب على التجربة التي قد تؤدي إلى خسارة المال أو المجهود أو

غير ذلك، وهذه حال تسير بها نحو المهانة الذاتية، نحو الإحساس بأنها غير مسئولة عن المجتمع؛ إذ هي تعيش وكأنها على الرف، لا تساهم في أخطاره أو مساره. ومن هنا هذا الجمود، الذي يصل أحياناً إلى الذهول العام عند كثير من النساء؛ فإن الجريدة اليومية بما تروي لنا من أحداث عالمية — مثلاً — لا تجد عند المرأة ذلك الاهتمام الذي تجده عند الرجل؛ لأن الموقف السيكلوجي هنا واضح، وهو أن المرأة تجد أنها ليست حرة في العمل أو الانتقاد أو الخطأ، فهي لذلك غير مسئولة، هي غير مهتمة، هي على الرف.

لقد ساوينا في التعليم بين الشبان والفتيات، ولكن هذه المساواة لا تكفي، فقد تكون المرأة خريجة الجامعات، ولكنها، لأنها لا تشترك في الحياة العامة، ولا تنتج، ولا تعمل في المصنع أو المتجر أو المكتب، لا تتخرج من جامعة الحياة، ولذلك لا تحصل على الحكمة التي يحصل عليها الرجال الذين لا يقتصرون على ما تعلموا في الجامعة، بل يضيفون إلى ذلك تجارب الأيام وعبرها وحوادث الدنيا ومسراتها، وهم يتزودون من ذلك حكمة ونضجاً لا تحصل عليه المرأة.

ليست المساواة أن يستوي الجنسان في التعليم، إنما المساواة أن يستويا في فرص الحياة، في كوارث الدنيا، في كل ما ينادينا به عقلنا وغرائزنا وحقنا وواجبنا بوصف أننا من البشر، وأن كلاً منا إنسان قبل أن يكون رجلاً أو امرأة، زوجاً أو زوجة. نحن الرجال نهتم، ونغامر، ونقدم، ونجرب، ولذلك نتعلم، ولا نبالي أن نخطئ؛ لأننا نعد الخطأ بعض تعليمنا.

ولكننا نحرم المرأة كل ذلك، وبذلك نحرمها ضمناً التعليم الذي تحتاج إليه كي تصير إنساناً؛ لأن الإنسان ينمو وينضج بالتجارب، باضطراب الحوادث، بالإصابة والخطأ، فيستنير ذهنه بتقليب الاختبارات المتوالية، وتكتسب نفسه الحكمة التي يعترضها من الحوادث التي تمر به.

المرأة تعيش بلا حوادث، وهي لذلك لا تنمو.

والمرأة تخشى التجارب، وهي لذلك لا تعرف.

يجب على المرأة، كي تكون إنساناً، أن تعيش على مستوى الرجال من اكتساب الخبرة والتجربة والانغماس في الحياة، والاشتراك في النشاط البشري والاجتماعي. يجب أن تخرج من الحجاب النفسي الذي لا يزال يلازمها.

كلاب بافلوف

من الحسن أن يعرف القارئ لهذا الكتاب شيئاً من بافلوف وكرابه، فإن «الرجع الانعكاسي المكيف» هو الصيحة العالية هذه الأيام في السيكلوجية. ويمتاز بافلوف بميزة لا يستطيع أحد أن يعزوها إلى كثيرين غيره من السيكلوجيين، هي أنه علمي تجريبي من حيث الوسيلة وأسلوب البحث، أما من حيث النتيجة فإن هذه تترك للمستقبل، ولا يمكن أن تقال الكلمة الفاصلة فيها من الآن. مات بافلوف قبل سنوات، وكان إلى قبل نهاية القرن الماضي عالماً في الفسيولوجية لا شأن له بالسيكلوجية، وقد استطاع أن يرقى بالفسيولوجية وأن يثير بعض مشكلاتها، وذاعت له شهرة أوربية في هذا الضوع، ونال جائزة نوبل في ١٩٠٤ لأبحاثه في الهضم، ثم شرع بعد ذلك يبحث موضوع التفكير من ناحية مادية صرفة؛ أي: تجريبية، كما لو كان بالمسطرة والسنتيمتر.

ذلك أنه أراد أن يعرف كيف يفكر الكلب، ومتى عرفنا ذلك فإننا نعرف كيف يفكر الإنسان، بل كيف يفكر الفيلسوف والرياضي والسياسي، أو أن هذا هو ما يزعمه بافلوف. وهناك شيء يسمى «الانعكاس»؛ أي «الرجع الانعكاسي»، فأنا حين أحس بالضوء عقب الظلام أغمض عيني، والكلب حين يرى مزعة من لحم يسيل لعابه، والطفل البشري حين يفاجأ بصوت عالٍ ينتفض. وكل هذه تسمى «رجوع انعكاسية مباشرة»، وليس لنا عليها سلطان؛ إذ هي تحدث عفواً أو طبيعة، ولا نحتاج إلى تعليم أو تدريب كي نعرفها ونعمل بها.

ولكن بافلوف يقول إن هذه الرجوع الإنعكاسية هي الأصل والأساس للتفكير والسلوك البشريين، تفكير أرسطا طاليس وسلوك نابليون.

«الأصل والأساس» فقط، أما ما يبني عليهما فهو ما يسميه «الرجع الانعكاسي المكيف»، وذلك بإيجاد رجوع أخرى تنبني على هذا الأصل أو الأساس.

وعمد بافلوف إلى الكلاب للتجربة، وحرص على أن تكون التجربة عملية خالية مما يخل بها أي إخلال؛ فإن الكلب — مثلاً — وقت التجربة لم يكن يرى شخص المجرب أو يشم رائحته أو يسمع صوته، وإنما كان يرى ضوءاً أو يسمع جرساً فقط؛ وذلك كي لا يتأثر بشخص معين يحبه أو يكرهه فيؤثر اتجاهه إليه في سلوكه.

فقد درب الكلب أولاً على أن يسمع جرساً وهو يرى اللحم، ثم خرق الفك الأسفل من الفم وألصق أنبوبة به؛ وذلك لقياس لعبه وتعيين مقداره عندما يرى اللحم أولاً بلا جرس، ثم بعد أن يراه مع الجرس، ثم يسمعه الجرس بلا لحم يراه؛ أي يقاس مقدار اللعاب في كل هذه الحالات الثلاث.

فالكلب عندما يرى اللحم يجري لعبه عفواً وطبيعة، وهو لا يحتاج هنا إلى تدريب، ثم يدرب على أن يرى اللحم ويسمع الجرس معاً، فيقترن عنده صوت الجرس برائحة اللحم أو رؤيته، ثم بعد ذلك يسمع الجرس بلا لحم، فيجري لعبه أيضاً؛ لأنه قد درب على أن يقترن اللحم بصوت الجرس. وهذا هو «الانعكاس المكيف».

ذلك أن الكلاب التي لم تدرب لا يجري لعبها عندما تسمع دقات الجرس، ولكن كلب بافلوف قد درب فأصبح لعبه يجري ويملاً مقداراً من الأنبوبة؛ لأنه كان يقرن الصوت الذي يسمعه إلى اللحم الذي يراه ويشمه.

وبدلاً من صوت الجرس يمكن استعمال ضوء دائري مع اللحم فيجري اللعاب، وضوء آخر بيضاوي يدرب الكلب عليه ويعرف منه أنه ليس هناك طعام، فلا يجري اللعاب.

ولكن بافلوف عمد إلى تجربة أخرى، هي أنه وضع الضوء الدائري (= لحم) والضوء البيضاوي (= لا لحم) معاً في وقت واحد، فحار الكلب، ونبج نباح الحزين الذي وقع في مشكلة نفسية لا يدري كيف يفكر أو يسلك بشأنها؛ أي إنه في نيوروز.

ثم عمد بافلوف إلى تجربة أخرى، هي أنه نزع من الكلب المادة الرمادية التي تكسو المخ، فلم يستطع إيجاد «الرجع الانعكاسي المكيف».

ذلك لأن المادة الرمادية التي تكسو المخ الأبيض هي مكان التفكير؛ أي: هي الأصل أو الميدان للتقدير والتحليل والتركيب، تصل إليها الرجوع المكيفة فترتبها وتعين منها السلوك والخطة، وبدون هذه المادة ليس لنا ولا للكلب رجوع انعكاسية مكيفة، إنما لنا

فقط رجوع انعكاسية مباشرة؛ نشم اللحم إذا وضع أمامنا، ونرفع القدم إذا جمش، ونصرخ من الماء الحار، ولكن لا نستطيع أن نفكر ونستنتج خطة نتخذها بعد نزع المادة الرمادية.

وبكلمة أخرى، لم يستطع الكلب أن «يتعلم»؛ أي: يدرّب بعد نزع هذه المادة الرمادية. والآن وجد بافلوف أن النيوروز؛ أي: القلق النفسي المؤلم، يحدث في الكلب في ثلاث حالات:

(١) الحال الأولى: عندما يوقعه في شك؛ كالإشارة الضوئية تقف بين رسمين، فلا هي دائرية ولا هي بيضاوية؛ أي: لا تدل على طعام أو على لا طعام. ونحن أيضًا سواء في هذه الحال مع الكلب؛ فإن الأم التي مات ابنها تستطيع أن تتحمل الصدمة وتنهض من الكارثة بعد الألم المضمي، ولكنها إذا وقفت بين الشك واليقين بحيث لا تعرف هي إن كان غيابه عن البيت لأنه مات أو لأي سبب آخر، وأنه سوف يعود أو لا يعود، هذا القلق يجعلها في نيوروز؛ أي: قلق لا يطاق؛ إذ هي هنا كالكلب: طعام أو لا طعام؟

(٢) الحال الثانية: أن بافلوف جعل المنبه للطعام هزة كهربائية تؤلم ألمًا خفيفًا، ولكن الكلب يتقبل هذا الألم راضيًا؛ إذ هو دليل على الطعام القادم، ولكن بافلوف جعل يزيد الألم رويدًا رويدًا إلى أن صرخ الكلب؛ لأن الهزة كانت شديدة.

وكل هذا معقول، ولكن بافلوف وجد بعد ذلك أن الهزة الخفيفة الأولى التي كان يتقبلها الكلب راضيًا لأنها دليل الطعام لم يعد يتحملها (هذه الهزة الأولى الخفيفة) بل صار يصرخ منها، واحتاج الكلب إلى ثلاثة شهور من الراحة كي يعود سويًا ويتحمل الهزة الخفيفة.

وهذا هو ما يحدث لنا أيضًا، فإن كارثة تقع بنا في الطفولة نذكرها بعد ذلك بما يشبهها أو يعيد إلينا لونا منها مهما خف هذا اللون أو تلك المشابهة، كأن يفزعنا كلب في غرفة مقفلة، فنخاف بعد ذلك الغرفة المقفلة ولو لم يكن بها كلب، ونحس كربًا لا يطاق، وثلاثة شهور عند الكلب قد تساوي عشر سنوات عندنا كي ننسى.

وشبيه بهذا ما حدث عفواً عند بافلوف، فقد دهمت المدينة التي بها كلابه عاصفة برقية رعديّة مع سيول من المطر أغرقت غرف الكلاب، فحملها بافلوف إلى مكان آخر، وكانت الكلاب مرعوبة من هذه العاصفة وهي في الطريق، وبعد شهور عمد بافلوف إلى قليل من الماء فجعله يتسرب إلى أرض الغرفة التي بها الكلاب، فصرخت مذعورة كما لو كان البرق والرعد قد عادا.

أي إن المنبه الشديد — الهزة الكهربائية أو الرعد والبرق — يحدث في النفس أثرًا يبقى نائمًا إلى أن يتكرر ولو بصورة مخففة جدًا.

أذكر هنا الأم التي مات ابنها تبكي وتتألم عندما تسمع أن أمًّا أخرى قد مات ابنها، أو عندما ترى صورة فقيد في سن ابنها في الوفيات بالجرائد.

(٣) وفي الحال الثالثة أن بافلوف استطاع أن يفسر النوم بأنه منع المنبهات الإيجابية، فإذا وضعنا أمام الكلب ضوءًا بيضاويًا (= لا طعام) لفترة وجيزة نام، وهذا هو ما يحدث لنا، لا ننام في الضوء الذي ينبه العين، ولا في الضوضاء التي تنبه الأذن، ولكننا ننام في الظلام، وهي عندنا بمثابة الضوء البيضاوي عند الكلب. فالنوم هو حرمان من المنبهات الإيجابية.

وعلى أساس تجارب بافلوف هذه نشأت «السيكولوجية السلوكية» التي تزعمها واطسون في أمركا، وهي أن سلوكنا هو رجوع انعكاسية مكيفة لا أكثر.

ولهذا النظر قيمة كبيرة في التربية؛ وخاصة أيام الطفولة، وهي أن تجعل الرجوع المكيفة للطفل بحيث تعين له سلوكًا مكيفًا يتفق ومصالحته المستقبلية. ولكن هل نستطيع أن نقول إن الاختراع والاكتشاف ونظم الأشعار وتأليف الألحان ودراسة الفلك والذرة، كل هذه رجوع انعكاسية لا أكثر. أظن أنفسنا سننتهي إلى ذلك في المستقبل عندما تكثر التجارب وتمحص.

مجتمعنا غير اجتماعي

لكل فرد في الأمة حياة عائلية، وحياة اجتماعية. وقد يكون أحدنا عائلياً مسرفاً، من بيته إلى مكتبه أو متجره، ومن مكتبه أو متجره إلى بيته، وهناك من يمدح مثل هذا الطراز من الرجال، ولكن الواقع أن الذي يسلك هذا السلوك يحيا حياة محدودة ليس له آفاق، كما أن إحساسه الاجتماعي قد يضعف إلى حد الزوال.

والإحساس الاجتماعي هو في النهاية إحساس الوطنية، وإحساس التعاون، وإحساس المسؤولية السياسية، هو: «كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته». ولا يزال مجتمعنا — للأسف — «غير اجتماعي»؛ فإننا لا نكاد نجتمع إلا في المدرسة أو المكتب، أو متفرجين صامتين في الدار التمثيلية أو السينمائية. ولست أنسى هنا أن الضيافة الاجتماعية، ولكنها للأسف لا تزال محدودة في بيوتنا، وهي فن قلما تحسنه ربة البيت؛ لأن مستواها الثقافي دون مستوى الرجال، ولذلك كثيراً ما يقتصر واجبها على تهيئة الطعام ثم تنسحب إذا كان الضيوف من الرجال، أو هي تشارك مع الضيوف من النساء، ثم ينفصل الجنسان، فيتحدث الرجال عن السياسة، وتحدث النساء عن الخدم والأطفال والأقمشة.

والقهوة المصرية، بل المطعم المصري، لا يزال كلاهما للرجال فقط؛ فقد كنت في الشهرين الماضيين في باريس، وكان إعجابي عظيماً بالحياة الاجتماعية فيها؛ فإن القهوة هناك ليست للرجال وحدهم؛ إذ هي للنساء والرجال، وهي نادٍ للمؤانسة والنقاش والحب، وكذلك المطعم، فإنه ليس للغرباء الذين لا يجدون المسكن؛ لأن العائلات الفرنسية تترك بيوتها يوماً أو يومين كل أسبوع، وتتناول طعامها في المطعم، حيث الاجتماع بالأصدقاء،

محاولات

والاستماع إلى الموسيقى، وفي ذلك كله تربية وترفيه وراحة لربة البيت من أداء الواجبات المنزلية.

يجب أن نجعل مجتمعنا اجتماعياً، للرجال والنساء، في البيت، في القهوة.
ويجب أن نتعلم الضيافة الراقية، فلا نقصرها على المائدة المطهمة، وإنما نجعلها اجتماعات متوالية للراقي والصدّاقة والحديث البار.

كلمات اللغة تعين الأخلاق

قبل نحو مليونين أو ثلاثة ملايين من السنين كنا نحن البشر والقردة القديمة سواء، لما انفصل منها بميزاتنا البشرية الحاضرة؛ أعظم هذه الميزات هو هذا المخ الضخم الذي قد يبلغ نحو ألف وخمس مئة جرام.

وأعظم ما كان يعمل لتكبير المخ البشري هو أننا انتصبنا على أقدامنا فصرنا نحمل هذا الرأس الثقيل حملاً عمودياً لا يرهقنا بثقله، ولو أننا كنا نمشي على أربع لما استطعنا أن نحمله حملاً أفقياً؛ لأنه كان يثقل ويهق.

والمخ هو أداة التفكير، ولكن التفكير ليس سوى المعاني التي تعينها لنا الكلمات؛ ولذلك كان ارتقاء الإنسان اللغوي وسيلة إلى تكبير المخ، والفرق الأصيل بيننا وبين الحيوان لا يزال فرقاً لغوياً قبل كل شيء؛ نحن ننطق ونربط المعاني بالكلمات، وهو لا ينطق وليس له سوى تلك المعاني الساذجة التي يحصل عليها كل فرد بمجهوده الخاص دون أن يتلقى تراث الآباء والأجداد كما نفعل نحن.

وكلمات اللغة التي تنطق بها الأمة هي في النهاية أفكارها وأخلاقها وعقائدها. وسلوكنا اللغوي هو — لهذا السبب — سلوكنا الأخلاقي الاجتماعي، ونحن نرث من الكلمات الحسنة أو السيئة ما يرفع أخلاقنا وينفعنا أو ما يضرنا ويحطنا.

واللغة هي أعظم ما يحافظ على التقاليد؛ لأن كل كلمة مورثة هي تقليد موروث يعين لنا معنى أو نهجاً في الحياة.

وقد ألفت قبل سنوات كتاباً في هذا المعنى عنوانه: «البلاغة العصرية واللغة العربية»، هدفت فيه إلى إيضاح القيم السيكلوجية للكلمات، وهذا الفصل هو موجز له.

ذلك أنه قد ظهر في أوروبا علم جديد يسمى «السيمائية»، وهذه الكلمة مشتقة من الكلمة الإغريقية القديمة «سيما»، ومعناها علامة، ومن ذلك قولنا سيماهم على وجوههم؛ أي: علامتهم، ومن ذلك أيضاً «سيمافور»؛ أي: حاملة العلامة في السكك الحديدية. وإذن السيمائية هي علم العلامات باعتبار أن كلمات اللغة هي علامات وإيماءات. يتناول هذا العلم بحث الكلمات من حيث معانيها التي تتغير بتغير الزمان والمكان، وأيضاً أثرها الاجتماعي والسيكولوجي، ونحن في حاجة إلى أن نفهم اللغة العربية من هذه النواحي جميعها. من هنا كتابي الذي أشرت إليه.

كان لاروشفو كول المؤلف الفرنسي الذي مات في ١٦٨٠ يقول: «هناك أناس ما كان أحدهم ليحب لو أنه لم يكن قد سمع عن الحب».

وهو يقصد من قوله إلى أن كلمات الحب هي التي تصوغ الأخلاق الاجتماعية وتعين السلوك الجنسي، فإذا كانت هذه الكلمات رومانسية تنزع إلى الخيال والفن فإن الحب يتخذ عند الشاب والفتاة هذا اللون، وإذا كانت الكلمات فجة عامية فسيولوجية تناسلية فإن الحب يتخذ سلوكاً آخر، ولذلك نجد أن طالباً في كلية الآداب يحب ويشتهي الجنس الآخر، وينهج في سلوكه الجنسي على غير ما ينهجه بائع الجرائد أو الخباز أو الحوزي؛ لأن لهؤلاء لغة مؤلفة من كلمات لا يستعملها ذلك الطالب، ولذلك اختلفت معاني الحب وممارسته بينهما.

اعتبر كلمات الطبيب للأعضاء التناسلية، وكلمات الحشاش لهذه الأعضاء نفسها، فإن الأول يذكرها دون أن تثير في نفسه أية عاطفة؛ ذلك لأنه تلقاها على المشرحة أو في غرفة الجامعة من أستاذ يتحدث بلهجة علمية موضوعية، أما الثاني فقد تلقى كلماته وهو في غمرة الحشيش الذي عطل الجزء الأعلى من مخه فانطلق الجزء الأسفل الذي تتحرك به العواطف البدائية.

وإذا كان ترانثا من كلمات الفحش؛ أي: كلمات هذا الحشاش، كثيرة فإن سلوكنا أيضاً يفحش في المجتمع. فإن الطبيب الذي أشرنا إليه يسلك مع زوجته سلوكاً جنسياً يختلف عن سلوك الحشاش مع زوجته، ومرجع ذلك إلى الكلمات التي يستعملها كل منهما في الحديث عن هذا الموضوع.

وهناك كلمات تعد كنوزاً يجب أن تدخرها الأمة؛ لأنها قدوة للخير والشرف. اعتبر — مثلاً — كلمة «المروءة» في لغتنا، فإن هناك ألوفاً من أفراد الشعب ما كان أحدهم يمارس هذه الفضيلة لو أن هذه الكلمة لم تكن في لغتنا؛ إذ هي قد عينت سلوكاً

اجتماعياً راقياً ينبه الفرد إلى قيمة التعاون والبر. أو اعتبر أيضاً ما يقابل هذا من كلمة «عورة» للأعضاء التناسلية؛ فإن هذه الكلمة توحى النجاسة والخسة والوضعة للعلاقات الجنسية؛ إذ هي توهمنا أن إتمام الحب ليس شيئاً حسناً وإنما هو فعل قبيح، وأن تجنبه خير من ممارسته، بل أستطيع أن أزيد على هذا وأن أقول إننا نستقبح الأعضاء التناسلية بسبب هذه الكلمة. أو اعتبر عبارة «سن اليأس»، فإن المرأة عندما تبلغ الثامنة والأربعين أو الخمسين تنقطع عاداتها الشهرية وتشرع في الكهولة، وليست هذه الكهولة شيخوخة، ولا هي تنقص من جمالها النفسي، بل لعلها تزيده، وكثير من النسوة يمتزنان بقوة جاذبية كبيرة في هذه السن، حتى من ناحية الجمال الجسمي. ولكن هذه العبارة تبعث اليأس في نفس المرأة وتفل نشاطها، وتحملها على الاستكانة أو الانزواء الاجتماعي، وقد تملأ رأسها بعواطف سوداء من الغم إلى الأسف إلى الغيرة، وكان يجب أن يكون لنا تعبير آخر يصون كرامة المرأة في هذا السن، ويؤدي لنا الحقيقة التي تنطق بأن المرأة، مثل الرجل، لا تزال تحتفظ بجمالها ونشاطها وطموحها في سن الخمسين إلى الستين والسبعين؛ وذلك أن للكلمات أثراً إيجابياً في النفس؛ مثل كلمات النجاسة والطهارة والشرف والخسة والشهامة والهوان ... إلخ، فإن هذه الكلمات تعين سلوكنا في الحياة بقدر ما نأخذ منها، وبقدر ما يتكرر نكرها في معاملاتنا؛ لأن تكرارها يحيلها إلى عقائد كأنها جزء من الدين، حتى لقد قال العظيم جيته: «إن الكلمات التي اعتاد الناس تكرارها تستحيل إلى عقائد يتحجر بها الذكاء».

وصحة هذا القول تتضح في كلمات غيبية كثيرة ينطق بها الناس كأنها عقائد صحيحة مع أنها لا تزيد في المعنى الموضوعي عن كلمات الأطفال؛ مثل عفريت وبعبع. والكلمات تتغير معانيها بتغير الزمن، وهذا هو ما نسميه التطور؛ لأن المجتمع في تغيره يكسبها معاني أخرى، اعتبر — مثلاً — كيف يقول الثعالبي إن الحر هو الملحد، مع أننا نعتبر هذا الوصف بالحرية أساسياً في معانينا الديمقراطية الحاضرة. والمعاجم العربية لا تزال تقول إن الطبيب هو الكاهن أو الساحر كما كان عند الفراعنة والبابليين.

وعندما نجد كاتباً رجعيًا ينعي على عصرنا سيئاته الصحيحة أو الموهومة، نجد أن رجعيته تعود في الأغلب إلى أنه قبع في الكتب القديمة وأخذ بكلماتها وما تحمل من معاني أو التباسات سيمائية بعيدة عن الروح العصري، فهو بمثابة من يعتقد أن جهنم مملوءة بالنار، ثم يرحل بعد ذلك إلى القطب الشمالي حيث يعيش الإسكيمايون الذين يعتقدون أن جهنم مثلجة مظلمة تخلو من النار والنور، فينعي عليهم كفرهم وزندقتهم.

مهمة السيمائية هي إيجاد بلاغة جديدة تستخدم فيها كلمات اللغة للدقة التفكيرية والتوجيه الاجتماعي.

يجب أن نعمل لرواج كلمات المروءة، الشرف، الإخاء، الحرية، المساواة، المجد، الديمقراطية.

كما نعمل لكساد بل محو الكلمات التي تحمل المعاني القديمة؛ مثل تسمية الأعضاء التناسلية بعورة، أو مثل تلك الكلمات الغيبية التي تترك العقل وتبطل الفهم.

كما يجب أن نكسب الكلمات القديمة المعاني العصرية حتى نفهم من الصلاح أنه ليس الانغماس في الصلاة ولكنه خدمة المجتمع؛ أي: زيادة الصحة أو التعليم أو الثراء أو الحرية.

سيكولوجية الانضواء

دلتنا الحوادث في السنين القريبة الماضية على أن عددًا كبيرًا من الناس يحبون الانضواء؛ أي: الانتساب إلى جماعة معينة تدعو إلى نظام اجتماعي، أو إلى الإيمان ببرنامج تزعم أنه يصلح ما فسد.

فقد رأينا — مثلًا — حركة مصر الفتاة، ثم حركة الإخوان المسلمين، وفي السودان نجد الانضواء إلى السيد المهدي، أو إلى السيد الميرغني عامًّا يجذب إلى هذين الزعيمين آلاف الناس، وعندنا في الريف حركات انضوائية مختلفة؛ حيث نجد أحد المشايخ «يأخذ عهدًا» على أتباعه، وكثيرًا ما ينطوي هذا العهد على أصول سامية من الشرف أو الاستقامة أو الصلاح.

وحركة الانضواء إلى الأحزاب السياسية معروفة مألوفة في جميع الأقطار، بل هناك أيضًا حركات انضوائية صغيرة؛ كالانتساب إلى إحدى الجمعيات الخيرية مثلًا. وقصدنا من هذه الدراسة الموجزة أن نبحث الأسباب السيكولوجية لحركات الانضواء العنيفة أو التي تبدأ رقيقة ثم تنتهي عنيفة، فإن الأحزاب التي تنشر برنامجًا وتكسب الانتخابات به لا تحتاج إلى العنف، ولا يحس أعضاؤها ذلك التوتر الذي كان يحسه «الإخوان المسلمون» مثلًا.

وقد كانت الحركة النازية الألمانية من تلك الحركات الانضوائية العنيفة المتوترة التي انتهت بإغراق أوروبا في حرب قتل فيها نحو ١٥ أو ٢٠ مليون من البشر، وكذلك نشأت الحركة الفاشية الإيطالية بالزحف إلى روما والاستيلاء على الحكومة عنوة وبطشًا. والانضواء إلى جماعة ما يحتاج إلى تعليل؛ لأن أقل ما في هذه الظاهرة أن هناك كثيرين منا لا يحسون هذه الحاجة؛ إذ هم قانعون بممارسة حرفتهم، مكتفون بالارتباط

العائلي، فلماذا إذن نجد أناسًا يتوترون ويتحمسون وينضوون إلى الهيئات العنيفة التي قد تفرض عليهم تكاليف ثقيلة يرضونها في ارتياح؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول أولاً إنه ليس هناك شذوذ اجتماعي إلا ونجد له جذورًا ضعيفة في النفوس السوية؛ أي: الحسنة، فنحن جميعًا نحب أن نكبر، وأن يكون لنا مقام اجتماعي يوجد عندنا إحساس الكرامة، وليس شك أن الانضواء إلى جماعة لها نشاط ومركز ملحوظان يكبر شخصيتنا، وعبارة «يكبر شخصيتنا» تومئ إلى الأصل؛ فإننا لا نطلب التكبير إلا لأننا نحس أننا لسنا كبراء؛ أي إننا نحس نقصًا اجتماعيًا.

ولكننا سواء في الإحساس بهذا النقص، ولكننا نتفاوت في مقداره، فالرجل الثري الذي هيئ بروابط عائلية حسنة ووجد المقام في منصب خطير، لا يحس أو لا يكاد يحس شيئاً من هذا النقص، وهو حين يستسلم لأحلام اليقظة لا يبني قصورًا في الهواء؛ لأنه يجد هذه القصور على الأرض، ولكن الرجل الضائق بعيشه يحلم كثيرًا، وتكاد تكون له حياة أخرى كلها أحلام وأمان غير حياته الوجدانية التي نراه عليها، والتي يعيش ويكسب ويتصرف في المجتمع بها، وفي ريفنا المصري — مثلًا — نجد ضيقًا اقتصاديًا وفاقة تجر في أثرها هوانا، ونجد لقاء ذلك «شيخ طريقة» يأخذ عليه هؤلاء الضائقون عهدًا يكبر شخصياتهم ويولد فيهم إحساس الأهمية، فالفلاح الذي أخذ «عهدًا» يحس منطلقًا غامضًا جديدًا خلاصته: «أنا فقير في الماديات، ولكني عظيم في إيماني، ثري في قلبي وضميري، أنا رجل مهم».

وليس شك أن هذا الإحساس يريح ويهدئ النفس القلقة ويزيدها جلدًا على التحمل، وحيث تفسو الفاقة، كما في السودان أو في ريفنا، يفسو هذا الانضواء إلى «شيخ الطريقة». وليس من الضروري أن يحس أحد الراغبين في الانضواء إلى جماعة ما هوانًا باطنياً مستورًا لم يرتفع إلى الوجدان، ولكنه يريد أن يكبر، والانضواء يوفر له هذا التكبير.

وليس من الضروري أن يكون النقص اقتصادياً؛ إذ إن هناك ألوانًا كثيرة من النقص؛ فإن الزوج الذي تحتقره زوجته أو يهينه ابنه، أو ذلك الشاب الذي خاب في المدارس، أو ذلك التاجر الذي أفلس، أو ذلك الآخر الذي بقي في تعطل مدة طويلة، أو ذلك الموظف الذي يمارس عملاً صغيرًا بمرتب ضئيل، أو الذي يستبد به رئيسه يجعله خائفًا خشية الفصل والطرده، بل ذلك الشخص الذي يجد شوهة في عين عوراء أو أنف ضخم أو أي دمامة أخرى، كل هؤلاء يطلبون القوة والتكبير كي يعالجوا، من حيث لا يدرون، هذه الألوان من النقص.

والانضواء إلى جماعة لها مقام وجاهٍ وحرمة يكسبهم قوة ويكبر شخصياتهم، ولكن الإغراء بالانضواء يزيد إذا كانت هذه الجماعة تعمد في خطتها إلى البطش والعنف؛ ذلك لأن النقص هو في النهاية ضعف وخوف واضطراب وقلق، ونحن عندما نخاف نعدم إلى أحد شيئين: إما أن نفر من الواقع المخيف المؤلم بأن نشرب الخمر أو نأكل الأفيون، وإما أن نبطش فنضرب أو حتى نقتل، وكثيراً ما يكون الضعيف عنيفاً، كما أن العاجز هو الذي يهيج ويسب ويخبط، ذلك لأن ممارسة هذه الأعمال يزيل الاضطراب والخوف، ويعيد الاتزان والطمأنينة في منطق النفس، وليس في منطق العقل.

وعندما نتأمل الطرز الاجتماعية التي تعمد أو كانت تعمد الأفراد الذين انضوا إلى الحركات العنيفة نجد مصداق ما قلنا، فهناك فقراء ريفنا الذين ينضون إلى «شيخ الطريقة»، وهم يعالجون من حيث لا يدرون فاقتهم الاجتماعية والاقتصادية ويكبرون، وكذلك الشأن في فقراء السودان من أتباع السيد المهدي أو السيد الميرغني، وليس في هذين المثالين دعوة إلى البطش والعنف.

ولكن اعتبر الفاشية والنازية، فقد نشأت كلتاهما عقب الحرب الكبرى الأولى حيث كان التعطل قد ساد، وعم الإيطاليين والألمان قلق؛ أي: خوف، فلما ظهر موسوليني ثم هتلر ودعا كلاهما إلى القوة تأمينا من الخوف، وجد الأذان الصاغية.

وفي مصر عمدت جماعة في وقت واحد ما إلى الاعتداء على الحانات وتحطيمها، ثم جاء الإخوان المسلمون فجمعوا آلاف الأعضاء من الشبان الذين يحسون قلقاً اقتصادياً اجتماعياً أو هواناً وصغاراً لأن مراكزهم لم تكن لها الأهمية التي ترضى الكرامة، فانضوا، ولجأوا إلى جماعتهم هذه كي يكبروا شخصياتهم، ويحس كل منهم أن له رسالة وأنه شخص مهم، ثم عمد بعضهم إلى البطش والتدمير؛ لأن في البطش والتدمير منطقاً نفسياً زائفاً يوهم القوة، ومتى توهمنا القوة زال عنا إحساس الضعف والخوف والقلق.

وكثير من شبابنا يجد فرصاً مسدودة وأفاقاً محدودة وانفصلاً اجتماعياً يشبه الانكسار، وكثيراً ما يقع شبابنا في تعطل يكاد يطيح بالعقل، وعندئذ تأخذ الأمانى المسرفة مكان الواقع الذي لا يطلق وتنزع النفوس المطربة إلى أية دعوة إلى القوة والبطش، ثم لا يكون من ذلك غير الفوضى والشر.

وتعليل الانضواء يَوْمِي إلى العلاج، وهو أن نزيل عن شبابنا إحساس الخوف والقلق، وأن نرد إليهم الطمأنينة بأن نوفر الأعمال الكريمة ونمنع الاستبداد الذي يجعل حياتهم غير متزنة أو مطمئنة، وكذلك يجب أن نربطهم بالمجتمع بألوان مختلفة من النشاط

محاولات

الاجتماعي السليم؛ كأن نؤلف لهم المنظمات الرياضية والخيرية والثقافية، وكذلك يجب أن تكون لنا أحزاب سياسية سليمة يتعلق الشباب ببرامجها ويشبعون بنشاطها فلا يحتاجوا إلى الانضواء للمنظمات التي تدعو إلى البطش والعنف.

من هو الرجل الناضج؟

التأمل الخارجي للعوامل العالمية، والتأمل الداخلي للعوامل السيكلوجية، يتيحان لنا فهم الرقي الشخصي وتقدير درجاته، بحيث نستطيع أن نميز بين الرجل الفج والرجل الناضج، وبين السعيد والشقي، وبين المتطور والجامد.

وحقائق العالم الخارجي التي يجب أن نفطن لها، والتي بدونها لن يكون هناك نضج، كثيرة؛ إذ هي في الواقع دراسة العمر، ولكنها تنبني على مبادئ، كل مبدأ منها يشمل بعض هذه الحقائق وينظمها.

فحقائق العالم الخارجي تتجلى لنا بالقليل من التأمل، وأبرز ما في هذه الحقائق أنه ليس في هذا العالم شيء ثابت؛ إذ إن كل شيء في تغير أو تطور: الجماد والحيوان والنبات، فأنت اليوم غير ما كنت في الأمس، وغير ما سوف تكون في الغد. وكذلك الحيوان والنبات والماء والطين والمعادن ... وإذا كان هناك اختلاف فهو في الدرجة فقط، فنحن نغير بأسرع وأكثر مما يتغير الذهب أو النحاس، ولكننا جميعاً في تغير لا ينقطع.

والحقيقة الثانية هي أن جميع الكائنات من جماد ونبات وحيوان، إنما هي حلقات منفصلة في سلسلة واحدة، ونحن جميعاً مادة متطورة.

والحقيقة الثالثة أن التطور يجب أن يكون علامة الرقي في المؤسسات البشرية، ولذلك كل مؤسسة تحول دون التطور هي مؤسسة سيئة، وهذا التطور يعني في النهاية تنظيم المجتمع بحيث يرفع البشر من الحيوانية إلى الإنسانية.

وليست كلمات الرفع والرقي ونحوهما من الكلمات التي تطفو في الضباب؛ لأننا نعتمد في فهمها على المقياس العالي للرقي، وهو الإنسان العالي، والإنسان العالي هو الإنسان الناضج.

هذه هي العوامل الخارجية للنضج، وهي العوامل التي تحملنا على دراسة العلوم والآداب والفلسفات، أما العوامل الداخلية التي تؤدي إلى النضج فهي الدراسة السيكولوجية، وما نعرفه من السيكولوجية قليل جداً على الرغم من كثرة ما كتب عنها، وربما كانت هذه الكثرة هي اضطراب من الجاهلين لا أكثر. ربما كانت السيكولوجية في النهاية أيسر مما نظن؛ فقد لا تتجاوز تلك البساطة العارية التي يقول بها بافلوف، وهي أن معارفنا وأخلاقنا ومثلياتنا (جمع مثلي مثل حسني) لا تعدو أن تكون رجوعاً انعكاسية مكيفة، ولكن الكلمة الأخيرة لم تقل إلى الآن.

وقصارى القول أننا نعرف هذه الأيام جملة «حقائق»، وهي لا تتنافى مع الرجوع الانعكاسية المكيفة، وأولها أن السنوات الخمس الأولى من العمر هي القدر الذي يسيطر علينا ويوجه حياتنا مدى سبعين أو ثمانين سنة في المستقبل، وأن ما نرثه من آبائنا شيء عظيم، ولكن تربيته وبيئته في هذه السنوات الخمس أعظم جداً في توجيهها مما نرث. وهناك قليل من الناس قد استطاعوا التغلب على هذا القدر وقبضوا على دفة حياتهم، ولكن ما أقلهم! وما نسميه في الاخلاق حسناً أو سيئاً، وما نجد من إجرام أو عبقرية، وما نجد من حيوانية أو إنسانية، هو كله ثمرة هذه السنوات الأولى للطفولة.

والثاني أن سن الرشد الزمنية ليست على الدوام سن النضج السيكولوجية، فنجد — مثلاً — رجلاً بلغ من العمر خمسين سنة، ولكنه من حيث السن السيكولوجية لا يزيد على ثماني سنوات أو تسع، يسب ويعربد ويحقد ويثور، وقد يقتل لأقل استفزاز، وذلك لأنه «تجمد» على ما انتهى إليه في هذه السنوات الأولى.

والثالث أن الرجوع الانعكاسي المكيف الذي يقول به بافلوف هو عامل من أكبر العوامل للاستقامة أو الاعوجاج، وربما يكون هو كل السيكولوجية العملية، وربما يفتح لنا أبواباً للإصلاح لا تزال مغلقة بالغيبيات.

والرابع أن ما كنا نسميه غرائز إنما هو ميول لدنة يمكن توجيهها إلى أية ناحية، وأن ٩٩ في المئة مما نسميه غرائز هو اتجاهات اجتماعية قد غرسها فينا المجتمع برجوع انعكاسية مكيفة، فالجرم يرتكب جريمته بعبادات ذهنية وعاطفية اجتماعية وليس بغريزة موروثه، وقل مثل ذلك في الجندي الشجاع والمرأة الجبابة، وفي المؤلف الذكي العالمي والصحفي المهرج الثرثار؛ لأن لكل من هؤلاء «مركبات» هي في صميمها رجوع انعكاسية مكيفة.

فمن هو الرجل الناضج في ضوء العوامل الخارجية العالمية، ثم العوامل الداخلية النفسية التي ذكرناها؟

هو الذي سلط عليه القدر في السنوات الخمس الأولى من عمره من لم يوجهه الوجهة السيئة؛ لأن التخلص مما تعلمناه وتدريبنا عليه محال؛ إذ هو يكاد يلازمنا سائر عمرنا. ومن ساء حظه في سني الطفولة فلقي اضطهادًا أو تدليلاً أو حرمانًا من الوجدان الفلسفي أو الاجتماعي الحسن، يحتاج إلى منبهات قوية كي ينتقل من حال الطفولة إلى حال النضج.

الرجل الناضج هو الرجل الناجح في الحياة، ولا نعني هنا بالنجاح في المال أو الأسرة فقط، وإنما نعني النجاح الكلي الذي يشمل الثقافة الشخصية قبل كل شيء، هذه الثقافة التي تحدث فيه وجدانًا اجتماعيًا وبشريًا معًا، وهو لذلك يضع عقله فوق غريزته، وإنسانيته فوق حيوانيته. وبهذا المقياس لا نستطيع أن نسمي الرجل المنغمس في شهواته أو مطامعه المالية أو جهوده الاجتماعية ناضجًا، وكذلك المرأة التي تقضي وقتها في التجميل والتبرج ليست ناضجة، إنما النضج أن نعرف أننا نحتوي على عناصر رفيعة هي إنسانيتنا، وأخرى وضيعة هي حيوانيتنا، وأنا وصلنا إلى منعطف الطريق في تطورنا البيولوجي؛ فإما إلى الوراثة، إلى الحيوانية، وإما إلى الأمام، إلى الإنسانية؛ إما العقل وإما الغريزة.

ويجب أن يكون موقفنا هذا عامًّا في سلوكنا الاجتماعي والسياسي والعائلي والثقافي، بحيث نتساءل في كل مشكلة تعترضنا: أهي اندفاع الغريزة أم تأمل الوجدان؟ والرجل الناضج هو الذي ربي نفسه حتى صارت اهتماماته العالمية فوق همومه الشخصية، وذلك لأنه يعرف أن هذه الهموم الشخصية إنما هي هموم لملايين البشر مثله، وأن حلها فيما يتعلق بشخصه يجب أن يكون عامًّا.

وهذا الإحساس هو ما نجده في جميع القديسين؛ سواء أكانوا مدنيين أم دينيين، وحياة غاندي حين أهمل الإهمال التام ثروته الشخصية أو العائلية كي يزيد ثروة الهنود هي برهان النضج، وكذلك نجد هذا الإحساس عند المسيح حين دعي لاستقبال أمه وإخوته فأشار إلى أفراد الشعب قائلاً إنهم هم أمه وإخوته!

والرجل الناضج هو الذي درس الوسائل والغايات في عصره، واستنبط منها مثلثات جديدة تجعله يهدف إليها في سلوكه وتفكيره، حتى ولو لم يتلاءموا مع جيله، فإن تولستوي وغاندي والمسيح وبرنارد شو لم يتلاءموا مع الجيل الذي عاش كل منهم في عصره؛ وذلك لأنهم كانوا يهدفون إلى مجتمع أرقى وأكثر إنسانية، كانوا يحاولون أن يجعلوا الإنسان إنسانياً.

والرجل الناضج هو الذي اختار ثقافته بعد الدرس والفحص، بحيث أثمرت فيه ديانة بشرية أو عالمية هي احترام الحياة؛ لأنه يعقل ويحس معاً بأن الأحياء جميعها، من الشجرة النابتة في أرجنتينا، إلى الدودة التي تعيش في التربة الصينية، إلى الإنسان الزنجي المضطهد في إفريقيا الجنوبية، إلى أينشتين وأندريه جيد، كل هؤلاء إنما هم حلقات منفصلة في سلسلة الحياة، فاحترام الحياة هو الإحساس الأصيل في كل رجل ناضج.

فهل نستطيع أن نضرب الأمثلة لبعض الناضجين وفق هذه المقاييس التي ذكرنا؟ بالطبع ليست هناك إجابة مطلقة بحيث نستطيع أن نقول إن هذا قد استوفى النضج، وإنما هي درجات نختلف فيها، ثم بين هؤلاء وهؤلاء من نالوا بعضاً منها.

كان تولستوي ناضجاً من حيث أنه وصل إلى ديانة بشرية حملت الكنيسة على حرمانه، وأدت به هذه الديانة البشرية إلى حب عام ملاً صدره وجعله يحس أن آمم الآخرين وأفراحهم هي آلامه هو نفسه وأفراحه، ومن هنا كان سلوكه مع الزارعين لعزبته ومشاجراته التي لم تنقطع بينه وبين أسرته.

وهو وغاندي سواء من حيث التربة الذاتية والوصول إلى هدف واحد نجده في روح البر الذي يعمهما، ولكن نضجهما كان ينقصه الدراسة العلمية والتقدير لممكناات العلم، بل لقد كرها العلم وأحبا كلاهما السذاجة، وكانا مخطئين في هذا.

ويعد جيته أديب ألمانيا، وليوناردو دافنشي الرسام الإيطالي، ناضجين من حيث فطنتهما للعلم وبصرهما بمستقبله، ويمتاز جيته على دافنشي بالروح البشري، فقد كان أوربياً عالمياً، ولم يكن العصر الذي عاش فيه دافنشي يسمح له بهذا الإحساس أو الوجدان.

وفي أيامنا كثيرون يمتازون بالنضج من حيث إنهم قد استطاعوا أن يقهروا القدر الذي عين لهم أسلوباً سلوكياً أيام السنين الخمس الأولى من أعمارهم، فعمدوا إلى تربية ذاتية جديدة أتاحت لهم هضم المعارف البشرية واستخلاص الديانة البشرية منها، وربما كان إمامهم هنا برناردشو، فإنه بأبحاثه وفنه ومذهبه السياسي والاجتماعي، أعظم الرجال الناضجين في عصرنا.

أما كيف نتوسل إلى تحقيق النضج في أنفسنا فيكون هذا أولاً وقبل كل شيء بتشخيص «المرض» النفسي الذي أحدثته لنا السنين الأولى من الطفولة، ثم معالجته، أو على الأقل التنبه له حتى نبقى على وجدان له، ثم الدراسة، بأن يكون كل منا طالباً ولو بلغ التسعين من العمر؛ ونعني هنا دراسة الحقائق وليست دراسة المعارف. وأخيراً تدريب نفوسنا

من هو الرجل الناضج؟

على التطور وعلى الملاءمة الاجتماعية، حتى ولو كانت هذه الملاءمة لمجتمع منشود غير موجود.

سيكولوجية الرجل المثقف

تحتفل العواصم الأوروبية هذه الأيام بمرور خمس مئة سنة على ميلاد ليوناردو دافنشي الرسام، المثال، الميكانيكي، مخترع الآلات، مكتشف المحار على جبال الألب، الذي جمع بين العلوم والفنون ومارس الموسيقى، وألف فيها ونظم الشعر، ولم يترك ميداناً من ميادين المعارف في وقته لم يدخل فيه دخول المستطلع أولاً، الممارس ثانياً، وما هو أن كان ينتهي من ميدان حتى كان يثب إلى ميدان آخر، كأنه يريد أن يحتوي المعارف البشرية كلها في عصره.

وكانت أعظم ميزاته أنه لم يكن دارساً فقط؛ إذ كان يعمل بيديه، وبهذا الجمع بين اليد والذهن كيان يزن موضوعه الوزن الصحيح، فضلاً عن أنه كان يقدر القيم الاجتماعية للموضوعات الثقافية التي كان يتصل بها.

وإذن لم تكن دراسته تفرجاً أو تسليةً، وإنما كانت اشتباكاً عملياً في قيمة المعارف التي كان يدرسها الناس في عصره، فلم يكن الشعر عنده القراءة، وإنما كان أيضاً للتأليف، وكذلك الرسم والنحت والاختراعات الميكانيكية، فإنه مارسها جميعها وأسهم فيها، وهذا بعد دراسة عميقة للرياضيات.

واخترع طواحين الماء التي تدور بقوة التيار، وزوارق تدار مجاذيفها بالدواليب، ومناطق للسباحة، وآلة لفرم اللحم، ومدفعاً وبنديقية، وبحث المواد الانفجارية يحاول الوصول إلى كنهها وعلّة انفجارها، ونصح باستعمال البخار لتسيير السفن، وبحث القوة الجذبية المغنطيسية، والدورة الدموية في الحيوان، وكتب عن إيصال الأنهار بحفر أنفاق لها تحت الجبال، وسبق كوبرنيكوس في نظريته عن دورة الأرض، وسبق لامارك في تقسيم المملكة الحيوانية إلى قسمين: القسم الفقري والقسم غير الفقري، وأمضى سنين في بحث

الطيران واخترع طائرة، وبحث الأصول الفلسفية، وانتهى إلى أن الإرادة هي الأساس للنشاط البشري.

لقد ذكرنا أن ميزة دافنشي أنه كان يدرس بذهنه ويعمل بيديه، وميزة أخرى أنه لم يتخصص؛ فلم يكن فناً فقط، ولم يكن عالماً فقط؛ إذ كانت جميع المعارف البشرية ميدان نشاطه، وبهذا الاحتواء أو الإحاطة كان يقارن بينها ويربط ويستنتج.

وهو كان يعد بذلك أعظم رجل مثقف في عصره، وهذا من حيث الإحاطة للمعارف الشائعة في عصره، ولكنه من حيث المنهج لا يزال يعد أعظم رجل مثقف حتى في عصرنا؛ لأنه جعل الوسيلة للثقافة الذهن واليد، كما جمع كل ما استطاع من المعارف البشرية دون تخصيص.

ووفرة مخترعاته تعزى إلى هذا، إلى أنه كان يربط هذه المعارف فيعرف علاقاتها ومكانتها الاجتماعية، وإلى أنه هو نفسه كان عاملاً، فلم يكن يشطح في الخيال؛ لأن تجربة اليد كانت على الدوام ميزاناً يزن به الإمكان أو الاستحالة لما كان يتخيل.

ولو أننا فرضنا أن ليوناردو دافنشي كان يعيش في عصرنا فإنه بلا شك كان يدرس نظريات أينشتاين ويتعمقها، كما كان يعمل ليل نهار في التجارب الذرية.

ولكن، لأنه كان يدرس الشعر والموسيقا والرسم والنحت؛ أي: يدرس الجمال البشري والاجتماعي والطبيعي، فإنه لذلك كان يأبى اختراع القنبلة الذرية التي تهلك البشر رجالاً ونساءً وأطفالاً.

وصحيح أنه اخترع مدفعاً وبنديقية، ولكن الوجدان البشري لم يكن — وقتئذ — بقوته الحاضرة في عصرنا؛ لأن الوجدان الوطني كان بازغاً في أيامه، وكان إقليمياً محدوداً، وكانت له قوة النهضة والاندفاع.

ما زلنا نقرأ أرسطاليس وأفلاطون، وما زلنا نسترشد بفقهاء الدين الذين عاشوا قبل ألف سنة أو ألفي سنة، مع أننا نرفض الاسترشاد بطبيب عاش قبل مئة سنة فضلاً عن ألف. كذلك لا نسترشد بكتاب عن الكيمياء أو الفلك أو النبات مضى عليه قرن أو قرنان.

وعلة ذلك أن الفلسفة انفصلت من المجتمع البشري، وانطلق المفكرون فيها يبحثون عن مشكلات ذهنية خالصة، وكذلك فقهاء الدين استسلموا للتفكير الغيبي الذي يتجاوز هذا العالم وينأى عن مشكلاته الصغيرة والكبيرة.

فالفيلسوف أصبح يقرأ الكتب كي يكتب الكتب، والفقهاء في الدين كذلك يقرأ عن الفقهاء كي يكتب هو في الفقه، خواء في خواء، واجترار عقيم لطعام لا يغذو.

ولكن الكيماوي دخل المصنع وبحث عن مركبات جديدة يؤلفها كي ينتج بها في الصناعة أو الطب، وكذلك الطبيب درس الجسم البشري وأمراضه وعرف كيف يصل إلى الدواء الذي يشفي، ولذلك نحن كل يوم إزاء خبر جديد عن اكتشاف أو اختراع تتقدم به الصناعة أو ينجع به الدواء. فالكيمياء والطب والبيولوجية والجغرافيا والفيزياء، كل هذه علوم بشرية استمدت معارفها من المجتمع البشري؛ لأنها نافعة للبشر، تتصل بهم كل يوم في المطبخ وغرفة النوم وعلى مائدة الطعام وفي الملابس وفي مواد البناء أو زيادة المحصول من القمح أو القطن، وهي لذلك ترتقي وتنمو، ولا يمكن إلا أن ترتقي وتنمو. ولو أن الفلاسفة كانوا يعالجون المشكلات البشرية أيضاً، ولو أنهم كانوا يتواضعون ويبحثون الأسباب الفلسفية التي تجعل أجدنا مستقيماً والآخر معوجاً، أو لو أنهم كانوا يحاولون تنظيم المجتمع بحيث يستطيع تعليم كل فرد إلى سن الخامسة والعشرين أو يكفل لكل عائلة مسكناً عصرياً وطعاماً صحياً، لو أنهم فعلوا ذلك لكانت الفلسفة علماً ارتقائياً يرتقي كل يوم كما ترتفع الكيمياء أو الطب أو الهندسة. وكذلك الشأن في فقهاء الأديان.

إن انفصال الثقافة عن المجتمع البشري يجعلها غير بشرية؛ أي: عقيمة، وهذا هو حال التفكير الفلسفي والتفكير الديني في أيامنا، بل إن وصفها بالعقم لا يكفي؛ إذ إن هذا الانفصال يجعل التفكير فاسداً ومفسداً معاً؛ لأنه ينقل الاهتمام من شؤون المجتمع ومشكلات الإنسان إلى عالم وهمي من الغيبيات والمشكلات الكاذبة التي لا أصل لها. وقد أخصبت العلوم المادية في القرون الثلاثة الماضية لهذا السبب وحده؛ أي لأنها لم تنفصل من المجتمع، بل إن بيبكون زعيم الحركة العلمية أصر على أن التفكير بالعقل وحده لا يكفي؛ إذ يجب أن نفكر بأيدينا؛ أي: نجرب. والحضارة الأوربية القائمة حضارة الصناعة، هي حضارة التفكير باليد، والعلوم جميعها هي ثمرة الفكرة والتجربة؛ أي: الذهن واليد؛ ولذلك هي خصبة.

وهنا يجب أن نميز بين الدراسة والثقافة، فقد يدرس أجدنا الكيمياء ويعرف التفاصيل الدقيقة في تركيب الذرات والجزيئات، ولكنه هنا دارس فقط وليس مثقفاً؛ لأن التثقيف يجب أن يكون شاملاً عامّاً وليس محصوراً خاصّاً؛ أي: يجب أن تكون نظرته بشرية تجمع العلاقات بين الأرض والإنسان، وبين الإنسان والحيوان والنبات، وبين الإنسان

ومجتمعه، وبين ماضيه ومستقبله، بل بين الفن والعلم. نظرية شاملة مستنيرة للإنسان والكون.

والتخصص في علم أو فن من العلوم والفنون، لا يقل ضرره عن فصل الفلسفة أو الدين عن المجتمع، بل ربما يكون الضرر أكبر، ولقد عرفنا نحن في مصر هذا الضرر حين عمم المهندسون الماء للري الدائم في أنحاء الريف، فكانوا متخصصين يعرفون الهندسة فقط، كانوا دارسين ولكن لم يكونوا مثقفين.

وكانت النتيجة المحزنة لتخصصهم هذا أنهم عمموا مع الماء ديدان البلهارسيا والإنكلستوما للفلاحين، كما أنهم أفسدوا التربة بالارتشاح، كما كثرت أمراض النبات. كان يجب على المهندسين، قبل أن يعمموا الري، أن يعينوا الهدف، هل هو خدمة الأرض المصرية أم الإنسان المصري؟ ولو أنهم سألوا هذا السؤال لاحتاجوا إلى دراسة الطب والبيطرة والزراعة إلى جنب الهندسة؛ أي إنهم كانوا يحتاجون إلى أن يكونوا مثقفين وليسوا دارسين فقط، وكانوا عندئذ يربطون ثقافتهم بالمجتمع المصري، لا يقدمون على مشروع إلا بعد أن يزنوه بميزان الخدمة لأفراد هذا المجتمع قبل أن يزنوه بمقدار الملايين من الجنيهات التي تعود من ثمن القطن. ألا لعنة الله على القطن الذي جلب على فلاحينا البلهارسيا والإنكلستوما!

كما يجب على مهندسي الري في مصر أن يكونوا أدباء وفنانين واجتماعيين؛ أي: كان يجب أن يكونوا مثقفين.

شرطان للمثقف لا بد منهما؛ الأول: أن تتصل ثقافته بالمجتمع، بحيث يربط تفكيره كله واهتمامه كله بما ينفع هذا المجتمع ويرقى بأفراده، والشرط الثاني: أن يطلب الشمول والعموم لا التخصص. وليس في هذا إنكار لقيمة التخصص الذي يحتاج إليه عصرنا، ولكن يجب على المتخصص ألا يكون دارسًا فقط، وإنما يكون مثقفًا إذا خرج من تخصصه المحدود إلى الشمول والعموم.

وقد يقال هنا إنني أشرت شروطًا قاسية للثقافة، وأنه يندر أن يتقف الإنسان نفسه بحيث يستطيع أن ينظر النظرة المستنيرة مع الشمول والعموم، ولكني هنا سيكولوجي.

ما هو الذكاء؟

هو النظرة العاملة الشاملة مع الاستنارة السابقة.

هو الجمع والمقارنة للعوامل والبيئة وتقديرها جميعاً، وفرز الخطير من التافه. وأخطر ما في هذه الدنيا، في هذا الكون، هو الإنسان، وأيما ثقافة تنفصل عن المجتمع والإنسان هي ثقافة البله والمغفلين.

فإذا اجتمع جماعة من الناس ثم فاجأهم خطر فإن الذكي هو الذي ينظر النظرة الشاملة لكل العوامل، كما أنه لا ينسى أن إنقاذ الناس هو المهمة الأولى التي لا يقارن بها شيء.

وهذه النظرة الشاملة هي العلامة الأولى للذكاء في جميع الناس، في أتفه المواقف وأخطرها.

والثقافة الشاملة هي الجهاز الذي يستضيء به الذكاء.

والمثقفون قليلون في كل عصر؛ لأن الذين يستطيعون استغلال العمر القصير كي يصلوا إلى النظرة الشاملة قليلون، ولكننا عرفنا منهم ليوناردو دافنشي، كما عرفنا جيته أديب ألمانيا، ثم بعد ذلك برناردشو ثم أندريه جيد، وفي عصرنا كثيرون تنبهوا إلى قيمة الثقافة الشاملة؛ يدرسون الأدب والعلم والفن والاجتماع والسياسة وكل ما يتصل بالإنسان ومجتمعه.

في كلمة سابقة قلنا إن الرجل الحكيم يتسم بأنه يجعل سعادته ممتدة شاملة لحياته كلها؛ فهو لا يغمس في المجتمع ويهمل عائلته، وهو لا يلتزم عائلته فيهمل المجتمع، وهو لا يتركب على حرفته كأنها كل شيء في الدنيا، وهو يعنى بتثقيف ذهنه وصحة جسمه، نظرة شاملة للحياة كلها ليس فيها شطط في ناحية مع إهمال في أخرى.

وهكذا الشأن في الثقافة التي يجب أن تكون جامعة شاملة، لا نتخصص في جزء منها ثم نهمل الباقي؛ لأن هذه التجزئة في الثقافة تجزئ شخصيتنا وذكاءنا فلا نستوعب الدنيا، ولكننا نأخذ بجزء منها.

بل أكثر من هذا، فإن النظرة الشاملة الجامعة للحياة والثقافة تجعل رؤيانا للدنيا أوضح، كما تجعل فهمنا للمعارف البشرية أعمق ومنفعتنا أكبر، ومن هذا الشمول نستنتج الدلالة والعبرة من الحياة والثقافة.

إن الإنسان الحي الحكيم يجب أن يؤلف بين حياته وبين هذا الكون؛ أي: يجب أن يستوعب الكون ويكتسب منه أقصى ما يستطيع من اختبارات وهو على أقصى ما يستطيع من وجدان، وكذلك الرجل المثقف يجب أن يؤلف بين ما تخصص فيه وبين سائر المعارف البشرية حتى يستوعبها جميعاً ويستخرج دلالتها فيما تخصص هو فيه.

محاولات

وأخيراً هل نستطيع أن نقول إن الرجل المثقف هو الذي يجعل حياته ثقافته، أو ثقافته حياته، يؤلف بين الاثنين ويمزجهما، لكن ليس كمزج الزيت بالماء، وإنما كمزج الأكسجين بالأيدروجين حتى يخرج منهما مركب جديد هو الماء؟

العنة الذهنية في كتابنا

العنة هي العجز عن الاتصال الجنسي، ومرجعها إلى كثير من الأسباب، ونحن نقتصر هنا على الأسباب النفسية:

(١) فقد لا يجد الرجل إغراءً كافيًا، كأن تكون المرأة غير جميلة، وهو عندئذ يفقد الحماسة.

(٢) وقد تحدث العنة لأن الرجل يخاف، يخاف ضميره أو يخاف سلطة خارجية.

(٣) وكذلك تحدث إذا كان الرجل مترددًا لا يدري هل يقدم أم يحجم؟

وهذه الأسباب للعجز الجنسي نجدها، كما هي، في العجز النفسي أو الأدبي، وليس هذا غريبًا، لأن العجز في الحالتين نفسي.

فإذا كان الموضوع الذي يعالجه الكاتب لا يبعث فيه الحماسة لأنه لا يغيره بالكتابة، فإنه عندئذ لا يحسن الكتابة. وكلمة الحماسة هنا تكاد تكون كلمة جنسية، ولكن أبا تمام عندما أراد أن يجمع نخبة الأشعار العربية، قديمها وحديثها، سمى كتابه «الحماسة».

الحماسة هي الغلو، هي الرغبة المتسلطة، وهي صفة الكاتب عندما يحب موضوعه كما هي صفة المحب في اشتهاؤه الجنسي. وكثيرون من كتابنا لا يحسنون لأنهم يكتبون في موضوعات لا يحبونها، يكتبون للمال، كذلك الذي يتزوج للمال، بلا حب، فلا يجد حماسة؛ ولذلك لا يحسن الحب.

الحماسة في الكاتب تحرك عواطفه، ثم ذهنه، وهي تسوقه إلى التنقيب عن الكلمة والمعنى، وتنصب له الهدف، وتعين الأسلوب، وتحمله على بذل الجهد للإتقان.

وإذا كان الكاتب خائفًا يخشى ضميره أو يخشى سلطة خارجية فإنه هنا أيضًا لا يحسن؛ لأنه عندما يكتب ضد ضميره يتمل ويروغ ويمكر، وهو في كل هذا يحس

أنه سافل، فينتزع الكلمات ويغتصب المعاني؛ أي إنه يزيّف، وهو كذلك أيضًا عندما يكتب وهو يحس أن هناك رقيبًا سيقراً كلماته ويحذف منها، أو أن هناك قانونًا يهدده بالمحاكمة.

وكذلك تحدث للكاتب عنةً ذهنية إذا كان مترددًا لا يعرف هل هو على حق أم باطل، وهل يجب عليه أن يكتب أم لا يكتب، وهذا التردد فضلًا عن أنه يفقده الحماسة، فإنه يعطل ذهنه فلا يستطيع الاختراع أو الاختلاق، وكثير من كتابنا في هذا الموقف يطالبون بالمحافظة على التقاليد، ثم في الوقت نفسه، يحسون أنهم يجب عليهم أن يأخذوا بروح العصر الحاضر، فيترددون، وهذا التردد يجمد أذهانهم.

وجميع كتابنا تقريبًا على هذه الحال، في عنة ذهنية؛ لا يتحمسون لأنهم يخافون أو يترددون، أو هم يكلفون أعمالًا لا يحبونها فلا تغريهم ولا تحمسهم. الحماسة، الغلواء، الحب، الاشتهاه النفسي للفن، هذه هي أسس الإحساس والإتقان في الكتابة، وجميعها غير متوافرة في مصر.

نحن في مصر نكتب تحت إشراف الرقابة الحكومية، وفي حدود التقاليد. وليس في مصر، بل ليس في الأمم العربية كافة، كلمة أشأم علينا من كلمة التقاليد التي نعيش بها في ألف ليلة وليلة من الظلام.

إن أوروبا قد فصلت الدين من الدولة فانطلق الذهن حرًا يسعى ويثب بلا قيود، وابتكر واختلق وجدد وابتدع، أما نحن فإننا حين نقعد إلى مكتبنا كي نكتب نجد كلمة «لا» منصوبة أمام أعيننا وأذهاننا، فنحجم أو نتردد، أو نكتب السخف ونحن على وجدان بأنه سخف.

نحن الكتاب نقف من الأدب والفن موقف المرأة العربية قد ضرب عليها الحجاب، فلما تخلصت منه بقي منه شيء في نفسها: حجاب نفسي يقول: هذا محظور، وهذا جائز، ولكن ... التقاليد.

ونحن كذلك، قد تخلصنا من بعض القيود الشرقية، ولكن بقيت علينا رقابة الحكومات والتقاليد.